مجلة البيان – العدد 20 ، المحرم 1410هـ / أغسطس 1989م

الافتتاحية

حوار الأقرباء أم البعداء ؟

دعا مركز دراسات الوحدة العربية إلى ندوة في القاهرة ما بين 25 - 27 أيلول/1989 وتحت عنوان (الحوار القومي - الديني) وقد حضر هذه الندوة عدد غير قليل من الكتاب القوميين الذين يرون الصلة ما بين العروبة والإسلام ، أو بدءوا بالتكلم عن الإسلام ودوره الحضاري، كما حضرها القوميون العلمانيون وبعض الإسلاميين والمشايخ ، وكانت الموضوعات تدور حول تطبيق الشريعة الإسلامية ، ومحاور الالتقاء والتفاهم بين العروبيين والإسلاميين ، والأزمة التي تمر بها الأمة ودور الفكرين في هذه الظروف ، وقد نشرت مجلة المستقبل العربي بعضاً من الأوراق التي قدمت للندوة ، كما نشرت جريدة الشرق الأوسط اليومية ملخصاً ليوميات الندوة.

ولنا على هذه الندوة الملاحظات التالية:

1 - إن فكرة الحوار والتواصل، وسماع الأطراف من بعضها ، والتعرف على الفكر الآخر، شيء جيد ولا غبار عليه بشرط أن يكون الرائد إلى ذلك هو التوصل إلى الحق وليس الترف الفكري. وجميل أن يتراجع الناصريون والقوميون ويعترفوا بقصورهم السابق في دراستهم للإسلام ، وأن التيار القومي عندما حكم أبعد الإسلام وبطش بدعاته ، ونرجو أن تتوضح الصورة أكثر في المستقبل ويعترفوا بأن عبد الناصر أساء للعروبة والإسلام.

2 - من الواضح أن كثيراً ممن شاركوا في هذه الندوة كانوا يطرحون حلولاً توفيقية وسطية ما بين الإسلام والقومية العلمانية ، وكأن لسان حالهم يقول : قربوا خطوة ونقرب أخرى، حتى نلتقي في منتصف الطريق ، فالأستاذ محمد فائق (وزير إعلام مصري سابق) ينتقد النظرة السلفية التي تريد إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء !!.

والأستاذ فريد عبد الكريم يدعو إلى عدم إقحام الدين كل دائرة من دوائر نشاطنا. والدكتور عصام نعمان ركز على أنه لا عصمة للفقهاء (لم يقل بعصمتهم أحد من المسلمين) ولكنه يريد أن يقول: إن باب الاجتهاد مفتوح للجميع ، وبمثل هذا قال مسعود الشابي واتهم الإسلاميين بأنهم يحتكرون المرجعية الدينية. والدكتور محمد عمارة يجوز أن يتولى القضاء الإسلامي رجل غير مسلم لأنه منفذ للقانون فقط.

وقد طالب الدكتور رضوان السيد كل طرف بالتنازل : "فعلى القوميين التقدميين أن يسقطوا من أجل الحوار شرطهم العلماني الذي يفصل أمتنا عن

تاريخها ، وعلى الإسلاميين أن يسقطوا من أجل الأمة شعار تطبيق الشريعة الذي يشرذ مهم في الراهن ولا يجمع " (1) ودعا فهمي هويدي للالتقاء حول موضوع الحرية وحقوق الإنسان والقضية الفلسطينية كقضايا متفق عليها الآن بين الطرفين.

هذا الطلب حول التنازلات يأتي من طرف القوميين رغم أن موقفهم ليس هو الأقوى ، وهم الذين طلبوا الحوار ودعوا إليه ومع ذلك فإنهم يشترطون على الطرف الآخر (الإسلاميين) أن يكون متنوراً ويؤمن بالديمقراطية والتعددية ، أي أنهم يريدونه إسلامياً عصرانياً يتنازل لهم ويلتقي معهم في منتصف الطريق ، وإذا كانوا جادين في الحوار فلماذا لا يسمعون من الطرف الأقوى على الساحة ؟ وقد أحسن الدكتور رضوان السيد في الرد عليهم عندما قال : " إذا كنتم تقصدون لجوء بعض الحركات الإسلامية إلى العنف ، فإن الماركسيين الجدد هم أول من دعا إلى الحرب الشعبية الداخلية ، ولم تتهموهم بالظلامية وعدم الاستنارة"(2).

3 - إن شعارهم الذي رفعوه هو (الحوار القومي - الديني) ولم يقولوا (القومي - الإسلامي) وهذا مقصود طبعاً لأن الديني تعني أي دين ، وفيه أيضاً تحجيم للإسلام على أنه (نحلة) أو مذهب يستفاد منه روحياً واجتماعياً ، والكل يعلم أن الإسلام دين شامل مهيمن ، مكون للأمة من جميع جوانبها.

4 - إن ملاحظاتنا هذه لا تعني السلبية أو النقد ، فبعض المشاركين تكلموا كلاماً جيداً - وإن من وجهة نظرهم - ولكنه يتصف بالرزانة والتعقل ، وإذا كانوا سيساعدون فعلاً في إزالة القهر المفروض على المسلمين فهذا شيء طيب ، ونريد منهم التدليل على هذا لأن الإسلاميين ذاقوا من الاتجاه القومي الويلات ، وكلام فهمي هويدي أن الإسلاميين وقعوا في أسر الماضي ، وإن كان فيه شيء من الصحة ولكن هل يريد منهم نسيان هذا والمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين ؟.

5 - بعد فترة من انتهاء هذه الندوة سئل أحد الدعاة الإسلاميين عن رأيه في الحوار مع العلمانيين ، فرحب بهذا كثيراً ، بل دعا إلى الحوار مع الكل ، مع المستشرقين والفاتيكان... وليس هذا مجال التعليق على جدوى أو أهمية مثل هذه الحوارات ، ولكن أليس من الأجدى والأولى الدعوة إلى الحوار مع الفصائل الإسلامية ودعوتهم إلى التعاون والتقارب والتنسيق، وإذا كنا غير متحفظين على أي حوار نافع فأصحاب المنهج الواحد أولى بالمعروف.

الهوامش :

1 - مجلة المستقبل العربي ، العدد 130 ، الصادر في شهر 12/1989 .
2 - المستقبل العربي /130.

من قضايا العلم والتعلم
حديث عن البديل
(2)

د.عبد العزيز القارئ

من الذي يجب عليه أن يتولـى تهـيـئة مجتمع مصغر داخل المجتمع الأكبر، حتى يأوي إليه طلاب علوم الشريعة؟ إنهم العلمـاء الـربانيون. إذا التف حولهم أولئك الفارُّون بدينهم الباحثون عن النجاة وجدوا الكنف الطيب الحـنـون الـنابض بالحياة الحقيقية ، فينشئون فيه حتى يقوى عودهم ، وينبت ريشهم ، ويتهيئون للطيران.

لقد جرت العادة أن كنف هؤلاء العلماء الربانيين يُخرج طيوراً (أبابيل) حتى إذا تكاثرت فوجاً إثر فوج ، انقضت على (أبرهة) وجيشه وخيله ورَجِـلـه قـبـل أن يـبـلـغ الكعبة، إن (أبرهة) يعرف جيداً هذه العادة.

نعم ، هذا هو شأن العلماء الربانيين ، وتلك هي عادتهم ، ولكن أين هم؟!

أحياناً تكون العقوبة الشاملة ليست خسفاً ولا مسخاً ولا طوفاناً ولا صيحة - والعياذ بالله - بل تكون حرماناً من أسباب النجاة ، فتنظر إلى المجتمع المتمرد الذي عم فـيـه الفـسـاد والتلف فلا تجد فيه عالماً ربانياً واحداً ، وربما ترى حشوداً من العلماء ، لكنهم ليسوا من ذلك الصنف الرباني الذي يربي الأمة بعلمه ودعوته.

تـرى أصـنـافًـا مـن العلماء شتى ، بعضهم - بل أسوؤهم - أولئك الذين يضمهم الحاكم إلى موكبه ،فيمشون خـلـفه ، يطبلون ويزمرون مع المطبلين والمزمرين ويلهجون بحمد الطاغوت مع اللاهجين ، ويا لَشناعة جريمة هؤلاء المعممين! ، الذين يفعلون ذلك وهم يلبسون جبة العلماء ، أي ضرر فـادح يلـحقـونـه بـثلاثــة مقـامات: مقام الدين ، ومقام العلم ، ومقام الأمة؟!

قال واحد من هؤلاء لسيده: "لو كان لي من الأمر شيء لجعلتك في مقام الذي لا يُسأل عما يفعل!".(علماء الحاشية) هؤلاء ينتهون أسوأ نهاية ، ينتهون إلى سخط الله وسخط الناس ، وإذا سلِمت الأمة من شرهم فهو أمر عجيب ، أما هم فما أبعدهم عن النجاة والسلامة! ، أما سمعت كيف تبرأ النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذا الصنف من العلماء:

عن كعب بن عجرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ، وليس بوارد عليّ الحوض"(1).

وأخبر - صلى الله عليه وسلم - أن ارتياد أبواب السلاطين فتنة فقال: "من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلاطين افتتن" (2).
ولذلك كان السلف يحذر بعضهم بعضاً من ذلك ، قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: "إن على أبواب السلاطين فتنًا كمبارك الإبل ، والذي نفسي بيده لا تصيبون من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله - أو قال: مثليه" ؛ هذا لأن الغالب أن السلطان يغلب من يرتاده على دينه فيهلكان معاً ، لكن قلة من العلماء يغلبون السلطان بقوة الحق الذي يصدعون به عنده ، فيكون ارتيادهم لهؤلاء بركة عليهم ، وبركة على الأمة ، ولذلك كان بعض أئمة السلف يخالطون الخلفاء ويجالسونهم ويؤثرون فيهم بعلمهم وقوتهم بالحق ، فمثلاً :
أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري من فقهاء الأمة الكبار - جالس خلفاء بني العباس وعمل في سلكهم ، بينما شيخه الإمام الرباني أبو حنيفة النعمان ابتعد عن أبوابهم ، بل ورفض بشدة مخالطتهم ، والعمل في سلكهم ، وكل من هذين الإمامين كان بركة على الأمة بما فعل ؛ فأبو يوسف - رحمه الله - أبرز من صحب من خلفاء بني العباس (هارون الرشيد) ومَن مثل الرشيد من ملوك المسلمين؟!
قال الحافظ الذهبي - في ترجمته في "السير": كان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك ، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي.
وقال: وكان يحب العلماء ويعظم حرمات الدين ، ويبغض الجدال والكلام ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه ، لا سيما إذا وُعظ (3).
اقرأ كتاب "الخراج" لأبي يوسف حتى تعلم ماذا صنع هؤلاء العلماء في مجالستهم للخلفاء ومصاحبتهم للملوك ، أما إذا تعمقت في دراسة آثارهم وبركاتهم فاطلعت على شبكة القضاء القوية الرائعة في صدر الدولة العباسية والتي كان أبو يوسف من مؤسسيها ورعاتها - فإنك حينئذ مطلع أكثر وأكثر على البركة التي أصابت الأمة من مصاحبة أبي يوسف وأمثاله من العلماء للملوك والخلفاء.
ومن المحدثين نجد أنموذجين: (سفيان الثوري) ، ظل مقاطعاً لمجالس الخلفاء هارباً منهم ومن العمل في سلكهم ، بينما الحافظ "محمد بن مسلم بن شهاب الزهري" دخل على خلفاء بني أمية وجالسهم ، جالس عبد الملك بن مروان ، وهشام بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ويا ليت كل الملوك مثل هؤلاء!
كان الزهري يأخذ من هؤلاء الخلفاء الأعطيات ويوزعها على الناس ، ولا ينتظر حتى يعطونه ، يظل يسد حاجات الناس ويستدين ، حتى إذا ركبته الديون أخذ منهم فسد به أفواه الدائنين ، ولذلك فإن أخذه لأعطيات الملوك لم يؤثر على

صلابته في الدين ، ولا منعه من الصدع بالحق ، والعادة أن من يأخذ لا يتكلم ، لكن الزهري لم يكن يأخذ لنفسه.
ذكر الذهبي في (السير) أن الخليفة هشام بن عبد الملك قال للزهري: مَن الذي تولى كبره منهم؟ فقال: هو عبد الله بن أُبي.. قال: كذبت هو علي بن أبي طالب ، فقال الزهري: أنا أكذب لا أبا لك! فوالله لو نادى منادٍ من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت ، حدثني سعيد وعروة وعبيد وعلقمة بن وقاص عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي (4).
علماء السلف الربانيون إذن كانوا على مسلكين في هذا الصدد ، وكلهم كان نفعه للأمة عظيماً ، لكن الذين اختاروا البعد عن أبواب السلاطين والخلفاء كانوا أعظم أثراً ؛ لأنهم تفرغوا لتربية الأمة ، أمثال: أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وسفيان الثوري ، ومن بعدهم: ابن تيمية ، والعز بن عبد السلام ، وغيرهم.
إن وظيفة (العالم الرباني) وظيفة (استراتيجية) أساسية ، مصيرية ، ضرورية ، لا حياة للأمة بدونها ، وهي تتطلب قدراً كبيراً من استقلال (العالم) ، ولذلك أبى هؤلاء الذين سميناهم من (الأئمة الربانيين) أن يتولوا شيئاً من الأعمال الحكومية ، لأنهم انتدبوا أنفسهم لتلك الوظيفة (الاستراتيجية) التي هي أجل أثراً وأعظم بركة.
إن أي ثمن يقبضه العالم الصادق لمصلحة الأمة مقابل التخلي عن هذه الوظيفة (الاستراتيجية) - لا يمكن أن يبرر هذا التنازل الخطير ، أو يقلل من أثر هذه الخسارة الفادحة ، وربما ظن هذا العالم الصادق أن (المصلحة) التي حققها للمسلمين تبرر تخليه عن مهمة (العالم الرباني) لو كان أمثال هؤلاء العلماء الصادقين ذوي (كفاية) لفتحوا أعينهم على حقائق الأمور ومجريات الحوادث في هذا العصر - عصر الفتنة المبرمجة - ولعلموا أن الثمن الذي دفعوه وهم لا يشعرون ثمن فادح لا تساويه تلك المصالح الجزئية القليلة التي حققوها ، مصالح في الغالب هزيلة لا يمكن أن توصف بأكثر من فُتات يلقي به أولئك المعربدون في أنحاء العالم الإسلامي ، لقد دفع أولئك العلماء من مصلحة الإسلام والمسلمين أضعاف ما أخذوا ، وذلك بتخليهم عن (الوظيفة الاستراتيجية) تماماً كما قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه).
وهذا المآل مؤكد في ظروف مثل هذه التي يعيش فيها المسلمون اليوم ، في معظم البلاد الإسلامية هناك (استراتيجيات) وضعها المخططون والمبرمجون لا مكان فيها لهذا الدين الذي يحمله هؤلاء العلماء ، ولذلك فإن هذه الحكومات لن تسمح لهم بأكثر مما تسمح به تلك (الاستراتيجيات) الموضوعة سلفا وكل الجهود العقيمة التي سيبذلها هؤلاء العلماء المساكين ستذهب أدراج الرياح ؛ لأنها ستظل مكبلة موثقة بالأغلال.

مع أن كثيراً من هؤلاء العلماء لا يتوفر فيهم شرط الكفاية الذي نص عليه الفقهاء وجعلوه شرطاً في كل من يتولى شئون المسلمين ، ومعناه الحنكة والخبرة السياسية ، والدهاء والذكاء السياسي ، فإدارة شئون الأمة ليست كالمداولة في مسألة فقهية.
إذا أردنا أن نفهم تماماً معنى (الكفاية) فلنستحضر أنموذجين:
أحدهما لواحد من ملوك المسلمين العظام: إنه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ، والآخر لواحد من أئمة الفقه الكبار من الربانيين: إنه أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، كلاهما كان يتمتع بحنكة سياسية رفيعة ، ودهاء سياسي عجيب ، وتمت المواجهة: المنصور مع أنه ملك فقد كان عالماً وفقيهاً ويعرف ما معنى أن يظل مثل أبي حنيفة - رحمه الله - خارج أغلال الدولة ، معناه أنه سيربي الأمة ، وصمم أن يولي أبا حنيفة القضاء ، لكن أبا حنيفة رفض ، هو فقيه وإمام من أئمة العلم ، لكنه مع ذلك كان سياسياً بارعاً ، إذن فهو يعلم ما معنى أن يقبل بوضع غل المنصور في عنقه ، معناه أن يتخلى عن مهمته الأساسية (التربية) ، صمم المنصور ، وصمم الإمام ، وتحطم عناد الخليفة أمام صلابة الإمام ؛ فأظهر انهزامه بسجن الإمام.
الحاكم دائماً كلما أحس بالهزيمة أمام العالم الرباني فإنه يسجنه ، وربما يقتله ، إنها سُنة قديمة ، تواصوا بها!
قد يقرأ كلامي هذا بعض المتعجلين من المتفقهين فيفهم منه أنه دعوة عامة للشباب المتدين لمقاطعة (الوظائف الحكومية) والانعزال عن الحياة ، كما يدعوهم إلى ذلك بعض أهل البدع من (خوارج) هذا العصر أو (دراويشه).
هذا تفكير خيالي غير فقهي ولا شرعي. أنا لا أتكلم عن الشباب ولا غير الشباب من طلبة العلم ، أنا أتكلم عن الأئمة ، عن العلماء الذين يمكن أن يؤدوا مهمة العالم الرباني ، علماء يفترض أن يقودوا الأمة ويوجهوها ، ويفترض أن يمسكوا بزمام الأمور ، ويحتضنوا المسلمين.
فالمقصود أن طلاب علوم الشريعة وشبابها إن لم يجدوا عالماً ربانياً يلجئون إلى كنفه، فكيف يفرون من ضغوط المجتمع الفاسد من حولهم؟.

الهياكل الرسمية للتعليم الشرعي:

هناك في الساحة تعليم ديني ، له هياكله الرسمية ومؤسساته الحكومية ، هذا التعليم الرسمي لو رُزق إشرافاً صادقاً وتولاه أناس ذوو عدالة وكفاية - يمكن أن يكون له أثر عظيم في مجال التعلم والتعليم ، وفي مجال توجيه الشباب واستقطاب طاقاتهم وطموحاتهم ، وذلك بسبب الإمكانات الضخمة التي يمكن أن تتوافر له ، لكن المشاهَد أن هذا التعليم (الرسمي) فاشل ، إنه لا يخرّج - في الغالب - إلا موظفين ، وإن خرّج أحداً من العلماء فإنه يخرج أفواجاً غير مؤثرين ، كما أنه فاشل في إشباع طموحات الشباب المسلم ، أو استقطاب

طاقاته المتفجرة حيوية وعنفواناً ، إنه تعليم لا مفعول له ، منزوع الريش ، غير قادر على الطيران ، ومن ينشأ في حِضنه أعجز عن الطيران.
وفي ظل تعليم بهذا الحال ليس غريباً أن تفسد مقاصد المتعلمين ، بل ليس مستبعداً أن توضع مناهج التعليم في ظل تلك المقاصد الفاسدة ، فالمشاهَد اليوم أنه حتى (المؤسسات الدينية الرسمية) فصّلت مناهجها لتخرج موظفين ليس أكثر ، الوظيفة أولاً وآخراً ، ولذلك فشلت هذه المؤسسات الرسمية في تخريج علماء عاملين مؤثرين، بل وفشلت حتى في إشباع تطلعات الشباب ، وامتلاك الزمام لتوجيههم وقيادتهم ، ولهذا فإن أكثر الحركات البدعية في صفوف هؤلاء الشباب والتوجهات التي يسمونها (متطرفة) إنما خرجت من تحت عباءة تلك الهياكل الرسمية.
لو كانوا يفقهون لأدركوا أن التعليم الرسمي هو (جثة ميتة) أشد خطراً منه وهو كيان حي وقوي!
وراح المتفقهون يبحثون عن (البديل) ، فتخبطوا في ليلٍ بهيم ، والطريق وعرة كثيرة المزالق ، طريق حفت بالمكاره ؛ فوقع بعض أولئك المتفقهين المساكين فريسة (البدع) والأفكار البعيدة عن مناهج السلف ، وفريسة المسالك الشوهاء الناقصة التي لا توصل سالكيها إلا إلى مزيد من الضياع ، وهذه نتيجة لازمة ، لأن الطريق التي وصفتها لا يمكن سلوكها بأمان إلا مع رائد خرِّيت (5).
*يتبع *

الهوامش:

1 - رواه الترمذي في كتاب الفتن من جامعه ، وأحمد في مسنده 4/243.
2- رواه أحمد 2/371،440.
3- سير أعلام النبلاء 9/187.
4- سير أعلام النبلاء 5/339.
5- الخرِّيت: بخاء مكسورة وراء مشددة مكسورة: الخبير بالطرق والمنحنيات.

خواطر في الدعوة

حديث في البناء

محمد العبدة

تغص الساحة الإعلامية أحياناً بالـمناقشات ، والأخذ والرد ، وليست الغاية من وراء ذلك الوصول لنتائج ، ثم وضعها موضع الـتـنـفـيذ ، فهذا ينحاز لمذهب معين في الأدب ، وهذا يخالفه، وذاك ينحاز لمدرسة فكرية معينة،وآخر يرد عليه، وتسود الصفحات في المجلات والكتب، وتبدأ المعارك، ويرتاح البعض ظناً منهم أن هناك حركة،وأن الدنيا بخير والحمد لله، وينام قرير العين ملء

جفونه، وبعضهم يحب هذه المعارك، كأنه يشاهد لعبة مصارعة يقضي معها وقتاً ممتعاً!
هذه المعارك وهذا السجال يذكرني بما كان يطلب منا ونحن في المرحلة الابتدائية أن نكتب مواضيع في الإنشاء: (أيهما تفضل الصيف أم الشتاء؟) أو (قارن بين الليل والنهار) أو (بين السـيـف والـقـلـم) ... وعـنـدمـا كـبرنـا كـانت المناقشات: هل الوحدة العربية أم الوحدة الإسلامية؟ - مع الأسف لم تتحقق واحدة مـنـهـما - وأمثال هذه المقارنات التي تستسهل الأمور ، وكأنها لا تحتاج إلى دراسة واعية متأنية كـمـا تحتاج إلى تفصيل وتحقيق ، ومن ثم إلى تطبيق وتنفيذ.
وإنني أخشى أن يكون كل هذا من قبيل تفريغ الطاقة وإرضــاء الـنـفـس ، أو الـهـروب من الواقع ؛ لأننا بهذا نشعر أننا نتحرك ، ولكنها حركة في المكان ، بل أخشى أن يـتـحـول هذا إلى مرض (الكلامولوجيا).
هل تُقضى الأعمار ونحن نتساجل في مواضيع تحتاج لدراسات من متخ-صلى الله عليه وسلم-ين أذكياء ، متى - إذن - نؤسس مدرسة تربي الأجيال على الخلق القويم والعلم المفيد ، وتنقذهم من طرق التعليم التي تستهلك طاقاتهم بحفظ معلومات ثم صبها في نهاية العام على أوراق الامتحان ، ثم تنسى ، والشباب ثروة لا تقدر؟ فأين استغلال طاقاتهم؟.
ومتى نبني مصنعاً نستـغـنـي فـيـه عن إنتاج الشرق والغرب ، ومتى نؤسس شركة تستثمر أموال المسلمين المكدسة التي لا يـعـرفـون كيف يستثمرونها ، وتتيح فرص العمل لمئات من الشباب الجامعي ، بل متى يكون عـنـدنـا مـؤسـسـات علمية تشجع الإنتاج العلمي في كل شيء، وتستفيد من طاقات العلماء والخبراء في شتى فروع المعرفة، ويجد المبدعون بواسطتها طريقاً لتحقيق إبداعهم.
نعم ، لابد من الردود والمناقشات - ولكن بقدر - كرد على مبـتـدع أو طالب علم أخطأ في أمور علمية ونشرها بين الناس ، أو رجل مستهتر بأخلاق الأمة وآدابها ، كما أن المناقشة العلمية الهادفة التي نصل فيها لنتائج محققة - هي شيء طيب ومقبول ، وقل مثل ذلك في الحوار الهادف ، إذا حسنت النيات واستُخدمت الأساليب المعقولة ، ولم يتحول إلى جدل عقيم ، القصد منه المغالبة وتسجيل الأهداف.
هذا هو المنهج الذي جاء به القرآن الكريم ، فلم يدخل في جدل عقيم مع النصارى ، بل قال: ((تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ))[ال عمران:64] ، ، وهذا ما فهمه الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - حين رفض مناظرة أبي يوسف بحضور الخليفة هارون الرشيد ؛ لأنه ليس من منهج الإسلام أن يتحول الدين لمناظرات ، والمتفرجون يشاهدون: مَن يغلب؟.
فالأصل هو البناء ، وبناء المؤسسات.

دراسات منهجية في النظر والاستدلال

بيان أصول المعرفة في الإسلام
-3-

د.عابد السفياني

لقد جاء عرض أصول المعرفة الإسلامية بما يناسب الفطرة البشرية ، وفيه احترام عظيم للعقل الإنساني يتناسب مع منزلة هذه الملكة التي هي أساس في الاقتناع.

فلنأتِ على عرضها بما يناسب المقام ، ولنتأمل كيف تكون الحجة ، وكيف يكون البيان ، ولنجدد العهد بتلك المسلمات التي هي عقيدة تابعي الأنبياء من جميع الأمم وفى جميع الأعصار.

وإليك الأسس التي جعلها الإسلام لأصوله في المعرفة:

الأساس الأول:

الكون مخلوق والإنسان كذلك ، وجميع العوالم محتاجة إلى مَن أنشأها ، كما هي محتاجة إلى من يحفظها ويدبرها ، ومنشئها وحافظها ومدبرها يستحيل أن يكون محتاجاً لشيء ، ولابد أن يكون له من صفات الكمال ما يكون به مستحقاً لخضوع هذه العوالم له - عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الملائكة ، وعالم السماوات ، وعالم الأرضين ، وسائر العوالم - ولابد أن يكون قادراً على تنظيم أمرها وإبداعها لتكون صالحة للحياة في غير اضطراب ولا تناقض ، بل في ثبات وشمول وتكامل.

ولذلك كان التذكير بآيات الله في مخلوقاته قد أخذ حيزاً كبيراً في القرآن ، وكان متكرراً ومفصلاً في مواضع كثيرة جداً ، ويرجع سبب ذلك إلى أن العقيدة التي سنشير إليها - وهي ما تضمنته أصول المعرفة في الإسلام ، وهو جزء من الألوهية - لا يمكن أن تثبت بحال إلا على قاعدة كل راسخة معرفتها تتمثل في معرفة صفات الله على وجه اليقين والجزم لينتقل أثرها المباشر فيكون هو تحقيق توحيد العبادة (1).

وأي عقل سويّ تعرض عليه هذه المشاهد ، ثم لا يستسلم لحكم الله وينقاد؟ ، ومن هذه المشاهد:

- مشهد السماء المرفوعة بغير عمد.
- مشهد الأرض الممهودة.
- مشهد الجبال المنصوبة.

- مشهد الزروع والثمار ، والشجر والدواب والرياح والبحار ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والأحياء والأموات ، والقبض والبسط ، والتصريف والتدبير.
وكل ذلك في نظام محكم دقيق لا تديره ولا تمسكه إلا قدرة عظيمة لا يمكن للعقل أن يتصور حدودها ، وليس له إلا أن يتدبر ويتفكر في صفاتها التي دلت عليها الآيات المخلوقة المشاهَدة ، وهي كثيرة جداً ، وتطارد الإنسان في كل لحظة ، وله أمام كل آية مخلوقة عبرة لو أنه تفكر وتدبر.
وإن كل من تدبر وتفكر سيعلم أنه لابد من تحقق الكمال في الصفات لمن كان له مثل هذه المخلوقات ، ومن ذلك كمال القدرة ، وكمال العلم ، وكمال التدبير والحفظ ، فهو القادر العليم المدبر الحفيظ ، كما أنه السميع البصير ليس كمثله شي ، ولا يعجزه شيء في السماوات والأرض ، وقل مثل ذلك في بقية الصفات ، فإذا اتجه القلب الإنساني إلى مَن له هذه الصفات ، انتقل معه منهج التربية الإسلامية الذي يسعى لتقرير أصول المعرفة الإسلامية ويجددها ويؤكد عليها ، انتقل معه خطوة أخرى ليعالج شبهات العقل الإنساني وقصوره ، ويحمي الفطرة من احتيال الشياطين لكي تقف أمام مسؤولياتها كاملة في الحياة الدنيا والآخرة.

الأساس الثاني:

والخطوة الثانية في هذا المنهج هي تعريف الناس بحقيقة الرسالة والرسول ، الذي يدل على الطريق الموصّل إلى خالق السماوات والأرض الموصوف بتلك الصفات العظيمة التي يتملاها القلب فيحب المتصف بها ويخافه ويرجوه ، ويتطلع إلى رضاه ، وهنا يكون ذلك التوجه للقلب البشري قد حددت له الضوابط وعرف كيف يمضي في ذلك الطريق ، طريق العبادة لله.
وهذا أساس عظيم في تلك القاعدة التي سيشيد منهج التربية والدعوة الإسلامية عليها أصوله في المعرفة.
ولكن إذا علمنا كيف اطمأن العقل والوجدان إلى الأساس الأول ، وشعرنا بحقيقة الإيمان ، فإن من حق العقل والوجدان أن يتلمس الحجة والدليل الذي يثبت صدق الرسول الذي سيدل على الطريق ، وستكون الرحلة على هذه الأرض حسب ما يبلغه لنا ، ويكون الجزاء ، فيتقدم منهج التربية الإسلامية المعجز بدليل تندك حوله الشبهات ، ويزيد الذين آمنوا إيماناً فيقول:
إن مما يفرق بين الرسول الصادق والدعي الكاذب أن الأول معه معجزة من ربه وأعظمها (القرآن) وهو كلام الله الموصوف بتلك الصفات الذي توجه إليه القلب ليعبده ويفوز برضاه.
وللعقل الإنساني أن يتساءل فيقول: فكيف نفرق بين كلام الله وكلام غيره ولِمَ لا يمكن أن يتقوله بشر؟ كيف نستيقن أنه كلام الله؟ فيقدم منهج التربية الجواب: فيقول:

إن الكون - كما مر في الأساس الأول - ليس فيه إلا خالق ومخلوق ، وهذا الكلام إما أن يكون كلام الخالق وإما أن يكون كلام المخلوق ، فإن كان كلام البشر فلا يعجز المخلوقون أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله ، فهل أتى أحد بمثله أو بشيء من مثله؟ ، لنستعرض **التاريخ:**
المعارضون من الجاهلية الأولى وهم عرب أقحاح لا مثيل لهم في الفصاحة والبلاغة والشعر والنثر - ولم يستطع أحد منهم أن يأتي بآية من مثله ، وهم أمام التحدي ووسط الصراع.
الزنادقة في المجتمع الإسلامي الذين حاولوا التشكيك في القرآن ومنهم مَن اشتغل بالأدب والعربية - ولم يستطع واحد أن يأتي بآية من مثله ، مع حرصهم البالغ على معارضته وتشكيك الناس فيه.
العصر الحاضر ، والتحدي مازال مستمراً لم ولن ينقطع وكثرة خصوم الإسلام في هذا العصر لا تُحصر ولا تُعد وقد انقطعت حجتهم أمام هذا التحدي المستمر الظاهر المعلوم.
فإذا كان كلام البشر فأين البشر؟!
وإذا كان من الأساطير ، فأين كَتَبَة الأساطير؟!
وإذا كان شعراً فأين الشعراء؟!
وإذا كان سحراً فأين السحرة؟!
أين هؤلاء وهؤلاء فإنه لم يأتِ أحد بآية من مثله ، ولن يأتي ، ومازال التحدي قائماً ، والخصومة محتدة ، والقرآن مستمر في البيان. ((وَإن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإن لَّمْ تَفْعَلُوا ولَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ))[البقرة:23،24].
ولم يبقَ أمام العقل الإنساني إذا انكسر المخلوقون وسقطوا أمام التحدي ولم يستطيعوا ، لم يبق أمامهم إلا خالقهم فهو إذاً كلامه ، ووحيه إلى نبيه ورسوله ، فالرسول الذي تحدى الناس بهذا القرآن ، ومازال يتحداهم ، وربى أمة عليه ، ومازال أتباعه قائمين بما قام به من البيان وإظهار الحجة والتحدي - ولم يستطع أحد أن يعارضه بشيء من مثله أو يعارض أتباعه بمثل ذلك ، لا شك أنه رسول صادق ونبي كريم ، أرسله الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.
وهنا يصل العقل والوجدان إلى تأسيس قاعدة إيمانية بدأت من توجه القلب لله ثم تلمسه الطريق الموصل إليه فإذا هو أمام كتاب مُعجِز ، ورسول صادق ، وكل ذلك وسط آيات محسوسة مشاهدة ، وأخبار معلومة ومشاهَدة أيضاً ، ومازالت تلك الآيات والمشاهد والأخبار تسير مع الحياة والأحياء ، تحفظ البناء الذي شيده منهج التربية الإسلامية ، وتمده دائماً وأبداً باليقين والحجة والثبات.

وإليك الآن محاورة بين العقل المؤمن والوجدان اليقظ ، تستبين بها أصول المعرفة في الإسلام.

محاورة بين العقل والوجدان:

العقل: الآيات المخلوقة ، والمشاهد العظيمة لا يمكن أن يتصور وجودها ، ويستمر حفظها إلا بعلم شامل محيط ، وحكمه وإبداع وتدبير ، ورحمة وعدل وقدرة لا يعتريها نقص ولا معقب لحكمها ، وليس فيه تناقض ولا اختلاف.

الوجدان: إني لأجد ذلك وأحسه ، إني متوجه من قبل إلى الذي فطر السماوات والأرض... ولكن الشياطين تضلني وتغويني ، تقول كيف تعبد ما لا تبصر؟! ، فأعود وأقول: من الذي يقضي لي الحاجات ، وهو ملجئي وملاذي عند الكربات؟ ، إنه الله ، فكيف لا يكون علمه محيطاً ، ورحمته شاملة ، وعدله عظيماً ، وقدرته لا تُحَدّ ، إنه الله المعبود بحق دون سواه ، لا معقب لحكمه ولا تناقض فيه ولا اختلاف.

العقل: نعم ، هذا هو الحق الصراح ، ولكن لقد سمعت عجباً ، مشارب كثيرة في الفكر والنظر ، واختلاف عجيب بين أهل الملل والنحل ، وقيل وقالوا ، وظن وخرص يقتتل عليه الناس ، مع أنه يضرب بعضه ببعض ، ويكذب بعضه بعضاً ، ينتقض ويغير ، ويزاد فيه وينقص ، أمره جد مضطرب ، وأهله في قول مختلف.

أفلا يسمعون؟! ، أفلا يبصرون؟! ، أفلا يعقلون؟! ، أفلا يتدبرون؟! ، أين هم عن الرسول الصادق والكتاب المعجز الذي لا اضطراب فيه ولا اختلاف؟!

فإن أرادوا خبر صدق عند الأمم السابقة وجدوه ، وإن أرادوا خبر صدق عن المستقبل ينفعهم لم يعدموه ، وإن أرادوا علماً عن صفات خالقهم جاء من البيان ما يكفيهم ، وإن أرادوا بياناً عن الحلال والحرام والمباح كشف لهم عنه مفصلاً فعرفوه.

الوجدان: الحمد لله الذي ردني إلى ما شهدت به في أصل فطرتي وأقررت ((وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)) [الأعراف:172].

وهنا يتعانق العقل المستسلم للوحي والوجدان الحي فيقولان:

أصل المعرفة في الإسلام: (الله) الموصوف بصفات الكمال المطلق المنزه عن كل ما يضاده ، هو ربنا ورب كل شيء ، أرسل رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالوحي - الكتاب والسنة - ليبين لنا كيف نعبده ، ونتربى عليه ، ونحكم به حكماً صادقاً عدلاً على جميع الأحداث والأشياء ، ويكون لنا موقف أهل الحق في إقامة الحياة الصالحة على الأرض ؛ فآمنا وصدقنا وخضعنا وعملنا بكل ما تضمنته شريعته من العقائد والأحكام ، والقواعد والأخلاق ؛ ليكون ذلك منهاجاً ربانياً ثابتاً نحيا به ونموت عليه ،

ونورثه مصدراً للمعرفة لمَن يقبله منا ويتبعنا عليه ، وليكون ذلك حجة لنا عند ربنا حين نلقاه جزاء أن جعلناه حجة علينا في الدنيا في جميع الأمور والأحوال.
فأصلنا المعرفي ثابت ، ثبات النوع البشري على الأرض ، وثابت ثبوت التكليف ، ودائم ديمومة الحياة ، لا يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة ، ولا يتصور له نسخ ولا تخصيص ولا تقييد ولا معارضة من فطرة سوية ولا عقل راشد ، وهو أصل لا نقبل ما يعارضه من الملل والأهواء والنحل.
هذه أصولنا في المعرفة ، ندعو جميع المخالفين إليها ، ونعلمهم أنه لا يثبت قدم الإسلام إلا عليها ، بها جاء رسول الإسلام محمد - عليه الصلاة والسلام - من ربه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

الهوامش:

1 - انظر: منهج التربية على العقيدة في كتاب دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب.

من أعلام أهل السنة والجماعة

عبد الله بن المبارك العالم المجاهد
-2-

د.محمد بن مطر الزهراني

ثانياً: جهاده:

كانت حياة ابن المبارك كـلـهـا جهاداً في سبيل الله بنفسه وماله وعلمه. فكان - رحمه الله - يرابط في الثغور كثيراً ، وكـان يحـج عـامـاً ويغزو عاماً ، وما نزل بلداً في رحلته لطلب العلم ثم سمع منادي الجهاد إلا تجهز وخرج للغزو.
وكان - رحمه الله - يدعو إلى الجهاد ويحث الـنـاس علـيـه لنصرة دين الله وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا.
كما كان ينعي على النساك القاعدين عن الجهاد كسلهم وخـمـولـهـم وســوء فـهـمهم لمعنى العبادة ، فهو يقول:

أيها الناسك الذي لبس الصو ... ف وأضحى يُعد في العـبـاد
الـزم الـثـغـر والتـعـبـد فـيـه ... لـيـس بـغـداد مسكن الزهاد
إن بـغـداد لـلـمـلـوك مَـحَــل ... مـنـاخ للـقـارئ الـصـياد (1)

وهاهو يراسل الفضيل بن عياض من ثغر من الثغور:

يا عابد الحرمين لو أبصرتـنـا ... لعلمت أنك في الـعـبادة تلـعـبُ
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائـنـا تـتـخـضــبُ
أو كان يتعب خيله في باطــل ... فخيولنا يوم الصبيحة تـتـعـبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيـب

لقد أتانا من مـقـال نـبـيـنـا قول صحيح صادق لا يكـذب
يسـتـوي وغـبار خيل الله في أنف امرئ ودخان نار تلـهب
هذا كتاب الله ينـطـق بيننـا ليس الشهيد بميت لا يكـذب

فلما قرأه الفضيل ذرفت عيناه ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح (2).
وكان ابن المبارك فارساً شجاعاً ذا خبرة فـي فـنـون القتال والمبارزة مع حرصه أن لا يُرى موقعه من القتال ، كل ذلك ورعاً وحسبة لله (سبحانه وتعالى).
روى الخطيب البغدادي بإسناده إلى عبدة بن سلـيـمـان المروزي قال:كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما الـتـقـى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البِرَاز ، فخرج إليه رجل فقتله ثم آخر فقتله ، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه ابن المبارك ، فطارده ساعة فطعنه فقتله ، فازدحم إليه الناس فكنت فيمن ازدحم إليه ، فإذا هو يلثّم وجهه بكمه ، فأخذت بطرف كمه فمددته ، فإذا هو عبد الله بن المبارك ، فقال: وأنت - يا أبا عمرو! - ممن يشنع علينا!(3).
وأخرج الذهبي بإسناده إلى محمد ابن المثنى قال: حدثنا عبد الله بن سنان قال: كنت مع ابن المبارك ومعمر بن سليمان - بطرسوس - فصاح الناس: النفير ، النفير ؛ فخرج ابن المبارك والناس ، فلما اصطف الجمعان ، خرج علج رومي فطلب البراز فخرج إليه رجل فشد العلج عليه فقتله... حتى قتل ستة من المسلمين ، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة ، ولا يخرج إليه أحد ، فالتفت إلى ابن المبارك ، فقال: يا فلان إن قُتلت فافعل كذا وكذا ، ثم حرك دابته وبرز للعلج فعالج معه ساعة ، فقتل العلج ، وطلب المبارزة ، فبرز له علج آخر فقتله ، حتى قتل ستة علوج وطلب المبارزة ، فكأنهم كاعوا - أي جبنوا - عنه ، فضرب دابته وطرد بين الصفين ، ثم غاب ، فلم نشعر بشيء ، فإذا أنا به في الموضع الذي كان ، فقال لي: يا عبد الله! لئن حدثت بهذا أحداً وأنا حي... فذكر كلمة...!! (4).
قال صاحب مفتاح السعادة: كان ابن المبارك يقضي جل وقته في الجهاد في سبيل الله ، وكان يقاتل ويبلي بلاءً حسناً ، فإذا جاء وقت القسمة غاب ، فقيل له في ذلك ، فقال: يعرفني الذي أقاتل له (5).
هكذا تكون النية في الجهاد ، إنه لأجل إعلاء كلمة الله وابتغاء مرضاته - سبحانه وتعالى - لا لمنصب ولا لجاه ولا لمال ، إنما يكون الجهاد لنشر دين الله بين الناس، وإقامة العدل في الأرض بتحكيم الكتاب والسنة، حـتـى لا تـكـون فتنة ويكون الدين كله لله، لا لمجرد تسلّم السلطة لذاتها ، ولا من أجل تغلب حزب على حزب أو فئة على فئة.

ثالثاً: في مجال العلم:

تلقى ابن المبارك العلم على مشايخ بلده ثم رحل في طلب العلم على غيرهم كعادة الأئمة من السلف الصالح في طلب العلم (6).

وكانت سنه آنذاك عشرين سنة عند رحلته، وأخـذ العـلـم عـمـن أدرك مـن الـتابعين ومن بعدهم ، وأكثر من الترحال والتطواف إلى أن مات في طلب العلم والغزو ، قال الذهبي: روى العباس بن مصعب في تاريخه عن إبراهيم بن إسحاق عن ابن المبارك قال:

حملت العلم عن أربعة آلاف شيخ، فرويت عن ألف منهم .. (7)

قال الذهبى:وحـدث عـنـه خـلـق لا يحـصـون من أهل الأقاليم، فإنه من صباه ما فتر عن السفر.. (7).

وقال الحافظ ابن معين: كانت كتب ابن المبارك التي حدث بها نـحـواً مـن عـشرين - أو واحد وعشرين ألف حديث (7).

وقـد كـان لابـن المبارك جهود ومشاركات في خدمة منهج أهل السنة والجماعة من خـلال مجال العلم والتعلم ، ويمكن إيجاز تلك الجهود والمشاركات فيما يلي:

1- منهج التعلم والتعليم.
2 - علوم الحديث.
3- مؤلفاته.

أولاً: منهج التعلم والتعليم:

لسلفنا الصالح منهج في تعلم العلم ، إذ لم يكن عندهم فوضى علمية كما نشاهدها في عالمنا اليوم ضاربة أطنابها.

وهذا المنهج يقوم على أسس ومبادئ ثابتة، ومن لم يسلكها يكون تعلمه ناقصاً قاصراً وربما كان علمه عليه لا له ، وهذه بلية كثير من طلبة العلم اليوم ، نسأل الله العافية.

وهذا الإمام العالم الرباني عبد الله بن الـمـبـارك - رحمه الله - أحد مؤسسي ذلك المنهج وواضعي مبادئه الثابتة يوضح لنا ذلك المنهج قولاً وعملاً (8).

- قال ابن المبارك: طلبت الأدب ثلاثين سنة ، وطلبت العلم عشرين سنة ، وكانوا يطلبون الأدب ثم العلم (9).

-قيل له بالشام: إلى كم تطلب العلم؟ فقال: أرجــو أن تـرونـي فيه إلى أن أموت ، أليس يقال له - طالب العلم - يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في الماء، أفلهذا مترك؟ (10).

وقال أيضاً: طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا (11).

- قال أبو صالح الفرّاء:سألت ابن المبارك عن كتابة العلم فقال:لولا الكتابة ما حفظنا(12).

- وقال نعيم بن حماد: سمعت ابن المبارك يقول: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة (13).

- قال شقيق البلخي: قيل لابن المبارك: إذا أنت صليت لِمَ لا تجلـس معنا؟ قال: أجلس مع الصحابة والتابعين أنظر إلى كتبهم وآثارهم ،فما أصنع معكم؟ ؛ أنـتـم تـغـتـابون الناس (14).

وقال ابن المبارك: إن أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم ثم العمل ثم الحفظ ثـم الـنـشـر (15).

هـذه أوجـز وأدق عبارة تضمنت الأسس ، والمبادئ الأساسية الثابتة لمنهج التعلم والتعليم عند السلف ، وهى نفسها عبارة الإمام سفيان الثوري - أمير المؤمنين في الحديث - حيث قال - وهو يوجه تلاميذه -: تعلموا هذا العلم ، فإذا تعلمتموه فتحفظوه ، فإذا حفظتموه فاعملوا به ، فإذا عملتم به فانشروه (16).

ولا غرو فابـن الـمـبـارك والثـوري ، كلاهما تلقيا هذا المنهج عن السلف الصالح ، والسلف تلقوه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- الـذي بُـعـث معلماً للخير ومتمماً لمكارم الأخلاق ، وكل منهج للتعلم يخالف ذلك المنهج فهو منهج خاطئ.

- قال ابن المبارك: كاد الأدب يكون ثلثي العلم (17).

ومر من قبل قوله:"طلبت الأدب ثلاثين سنة، والعلم عشرين سنة، وكانوا يطلبون الأدب، ثم العلم".

وهذه ركيزة من ركائز التعلم الأساسية عند السلف وهى البدء بالأدب أولاً ثم العلم ثانياً ، وهـذا مـعـنـى قول الحسن البصري وابن سيرين والشافعي: "كانوا يتعلمون الهَدي أولاً ثـم العلم" (18).

أما نحن اليوم فأحسننا حالاً الذين يعكسون هذا المبدأ ، أي أنهم بعد أن يفرغوا من طلب العلم يبدأون بـطـلـب الأدب، والـغـالـبـيـة العظمى لا يعرفون أدب الطلب ولا أدب العلم والتعلم ، فضلاً عن أدب الخلاف ، وأدب الفتوى وطرق الاستنباط والاستدلال ، فقد دُفن أصحاب ذلك الأدب وذلك المنهج منذ قرون خلت (رحمهم الله وأجزل لهم الثواب).

- وعن محبوب بن الحسن قال: سمعت ابن المبارك يقول: من بخل بالعلم ابتلِي بثلاث: إما موت يُذهب علمه ، وإما يُنسى ، وإما يلزم السلطان فيذهب علمه (19).

الهوامش:

1- تاريخ بغداد ، 1/21 ، ط السلفية بالمدينة النبوية.
2- تاريخ بغداد ، 1/21 ، ط السلفية بالمدينة النبوية.
3- المصدر السابق ، 1/167 ، ط السلفية بالمدينة المنورة.
4 - سير أعلام النبلاء 8/361 ، ط السلفية بالمدينة المنورة.
5 - مفتاح السعادة لطَاش كُبْرِي زاده ، 2/248 ، ط الأولى بالقاهرة.

6 -- قال يحيى بن معين: أربعة لا تؤنس منهم رشداً حارس الدرب ومنادي القاضي وابن المحدث ، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث ، معرفة علوم الحديث للحاكم ، ص9.
7 - تذكرة الحفاظ ، 1/275-276.
8 - كتب في بيان منهج التعلم عند السلف كتب كثيرة من أجودها وأجمعها كتاب "تذكرة السامع والمتكلم" ، لابن جماعة وهو مهم في هذا الباب.
9- غاية النهاية في طبقات القُراء لابن الأثير ، 1/446.
10- صفة الصفوة ، 4/120 ، وفيات الأعيان ، 3/34.
11 - سير أعلام النبلاء ، 8/352.
12- المصدر السابق ، 8/353.
13-المصدر السابق، 8/353.
14- المصدر السابق ، 8/353.
15 - مفتاح السعادة لطاش كُبري زاده ، 2/248 ، الديباج المذهب 1/408.
16 - التبصرة والتذكرة للعراقي ، 2/200.
17- صفة الصفوة لابن الجوزي ، 4/120.
18- تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ، 2 ، ط بيروت.
19- سير أعلام النبلاء ، 8/352-353 ، ط أولى.

هجر المبتدع
-4-

الشيخ بكر أبو زيد

ذكر الكاتب - فيما سبق - أدلة الهجر من الكتاب والسنة ، ويكمل الآن الأدلة بذكر دليل الإجماع.
التحرير

ثالثاً: الإجماع:

حكاه جماعة منهم: القاضي أبو يعلى ، والبغوي ، والغزالي.
قال القاضي أبو يعلى - رحمه الله - تعالى: "أجمع الصحابة والتابعون على مقاطعة المبتدعين".
وقال البغوي - رحمه الله تعالى - بعد حديث كعب بن مالك - رضي الله عنه (1) -:"وفيه دليل على أن هجران أهل البدع على التأبيد ، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاف على كعب وأصحابه النفاق حين تخلفوا من الخروج معه ، فأمر بهجرانهم إلى أن أنزل الله توبتهم ، وعرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم- براءتهم ، وقد مضت الصحابة والتابعون ، وأتباعهم ،

وعلماء السنة على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدعة ، ومهاجرتهم".
وقال الغزالي رحمه الله تعالى:"طــرق الـسلـف اختلفت في إظهار البغض مع أهل المعاصي، وكلهـم اتفقوا على إظهار البغض للظَّلَمة والمبتدعة ، وكل من عصى معصية متعدية إلـى غيره".
وقال ابن عـبـد الـبـر (2) - رحمه الله تعالـى -:"أجمعوا على أنه لا يجوز الهجران فوق ثلاث إلا لمن خاف من مكالمته ما يفسد عليه دينه أو يدخل منه على نفسه أو دنياه مضرة، فإن كان كذلك جاز ، ورُب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية".
وقال أيضاً - في الاستدلال من حديث كعب بن مالك وهجر النبي -صلى الله عليه وسلم- له هو والمسلمون (3) -:"وهذا أصل عند العلماء في مجانبة مَن ابتدع وهجرته وقطع الكلام عنه ، وقد رأى ابن مسعود - رضي الله عنه - رجـلاً يـضـحـك فـي جنازة فقال: والله لا أكلمك أبداً".

المبحث السابع

إعـمـال الـصـحـابـة - رضي الله عـنـهـم - فمن بعدهم لهذه القاعدة في حياتهم العملية في مواجهة المبتدعة:

لما ذَرَّ قرن الفتنة بكسر قفلها ، وقتل أمـيـر الـمـؤمـنـيـن عثـمـان - رضي الله عنه - وبدأ المندسون يبدون ما كانوا يضمرون من كيد للإسلام والمسلمين،أخذوا ينفخون في كير الفتنة، ويـنـشـرون الهوى وينفثون البدعة، بدع: القدر، والخوارج والرفض، والإرجاء، وهـكـذا تتوالى ، كلما بعد الناس من عهد النبوة وأنوارها ، حتى داخلت البدع والمحدثات شعائر التعبد وصارت مفرداتها كحَب منثور في كف كل لاقط.
لما كان الأمر كذلك واجه العلماء - رضي الله عنهم - فمن بعدهم هذه المحدثات العقدية والعملية ، بإيمان مستكمل ، وعلم جم ، وبصيرة نافذة فأظهروا من أنوار الشريعة الماحية لظلمة الضلال - ما اكتسح هذه الأهواء ، وقضى على نابتها ، وأعملوا فيهم العقوبات الشرعية ، حتى قلموهم ، وأجهزوا على محدثاتهم في الدين ، وكان الزجر بالهجر مما وظفوه - رضي الله عنهم - في حياتهم العملية ضد البدعة ومبتدعيها تأسيساً على قاعدة (الولاء والبراء) والحب لله والبغض لله.
ومازال هذا النهج السوي شارعاً في حياة الأمة يعتمدونه في مواجهة المبتدعة ، مدوناً بأسانيده في كتب السنة ، وهذه جملة من المرويات في هذه الوظيفة الشرعية بخصوصها عن جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - فمن بعدهم:
فهذا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - لما أخبره يحيى بن يعمر عن القدرية قال: "إذا رجعت إليهم فقل لهم: ابن عمر يقول لكم: إنه منكم بريء ، وأنتم منه براء" رواه مسلم وغيره (4).

وعن مجاهد قال: قيل لابن عمر: إن نجدة يقول كذا وكذا ؛ فجعل لا يسمع منه كراهية أن يقع في قلبه منه شيء (5).
عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول:"إياكم وما يحدث الناس من البدع ؛ فإن الدين لا يذهب من القلوب بمرة ، ولكن الشيطان يحدث له بدعاً حتى يخرج الإيمان من قلبه ، ويوشك أن يدع الناس ما ألزمهم الله من فريضة في الصلاة ، والصيام ، والحلال والحرام ، ويتكلمون في ربهم - عز وجل - فمَن أدرك ذلك الزمان فليهرب.
قيل يا أبا عبد الرحمن: فإلى أين؟! ، قال: إلى لا أين ، قال: يهرب بقلبه ودينه ، لا يجالس أحداً من أهل البدع" (6).
وعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال:"ما كان شرك قط إلا كان بُدُوّه تكذيب بالقدر ولا أشركت أمة قط إلا كان بدوه تكذيب بالقدر ، وإنكم ستبلون بهم - أيتها الأمة! - فإن لقيتموهم فلا تمكّنوهم ؛ فيدخلوا عليكم الشبهات" (7).
وعن الفضيل بن عياض قال:"من جلس مع صاحب بدعة فاحذره ، ومن جلس مع صاحب البدعة لم يُعطَ الحكمة ، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد ، آكل مع اليهودي والنصراني أحب إليَّ من أن آكل مع صاحب البدعة" (8).
وعن الفضيل بن عياض: من أتاه رجل فشاوره فدله على مبتدع فقد غش الإسلام ، واحذروا الدخول على صاحب البدع فإنهم يصدون عن الحق (9).
وعنه أيضاً: في النهي عن مجالستهم (10).
وعنه أيضاً: في النهي عن مجالسته ومشاورته (11).
وعنه أيضاً: في النهي عن مجالسته وأنها من علامات النفاق (12).
وعنه أيضاً قال: أدركت خيار الناس ، كلهم أصحاب سنة ينهون عن أصحاب البدع (13).
وعنه آثار أُخر كما في ترجمته من (الحلية لأبي نعيم) (14).
وعن ابن المبارك: وإياك أن تجالس صاحب بدعة (15).
وعن سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - أنه قال: "من أصغى بإذنه إلى صاحب
بدعة خرج من عصمة الله ووكل إليها - يعني إلى البدع -". ذكره البربهاري في شرح السنة (16).
وروى اللالكائي بسنده عن ابن زرعة عن أبيه قال:
"لقد رأيت صبيغ بن عسل بالبصرة كأنه بعير أجرب يجيء إلى الحِلَق ، فكلما جلس إلى حلقة قاموا وتركوه ، فإن جلس إلى قوم لا يعرفونه ناداهم أهل الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين" (17).

وعن ابن أي الجوزاء قال: لأن يجاورني قردة وخنازير ، أحب إليَّ من أن يجاورني أحد منهم - يعني أصحاب الأهواء (18).
وعن طاوس: جعل إصبعيه في أذنيه لما سمع معتزلياً يتكلم (19).
وعبد الرزاق: امتنع من سماع إبراهيم بن أبي يحيى المعتزلي ، وقال: لأن الغلب ضعيف وإن الدين ليس لمن غلب (20).
وعن محمد بن النضر الحارثي:النهي عن الإصغاء إلى كلام المبتدعة (21).
وعن يونس بن عبيد: لا نجالس سلطاناً ولا صاحب بدعة (22).
وعن يحيى بن أبى كثير: إذا كنت صاحب بدعة في طريق فخذ في غيره (23).
وعن إبراهيم بن ميسرة: ومن وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام (24).
وعبد الله بن عمر السرخسي: هجر ابن المبارك مدة لما أكل عند صاحب بدعة (25).
وقال سلاَّم: وقال رجل من أصحاب الأهواء لأيوب: أسألك عن كلمة ، فولى أيوب وهو يقول: ولا نصف كلمة ، مرتين يشير بإصبعيه (26).
ومثله عن أبي عمران النخعي (27).
وعن الحسن البصري قوله: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم (28).
وعن محمد بن سيرين: في عدم سماع قراءتهم (29).
وعن أبي قلابة: تجالسوهم ولا تخالطوهم فإنه لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ويلبّسوا عليكم كثيراً مما تعرفون (30).
وعنه أيضاً: ولا تمكّن أهل الأهواء من سمعك (31).
وأما الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - فالروايات عنه في ذلك - من فعله ، وقوله ، وفتواه - بلغت مبلغاً عظيماً.
وقال مالك: لا يسلم على أهل الأهواء ، قال ابن دقيق العيد: يكون ذلك على سبيل التأديب لهم والتبري منهم (32).
وقال النووى: وأما المبتدع ومن اقترف ذنباً عظيماً ولم يتب منه فلا يسلم عليهم ولا يرد عليهم السلام ، كما قال جماعة من أهل العلم (33).
وقال أيضاً: السنة إذا مر بمجلس فيه مسلم وكافر أن يسلم بلفظ التعميم ويقصد به المسلم ، قال ابن العربي: ومثله إذا مر بمجلس يجمع أهل السنة والبدعة ، وبمجلس فيه عدول وظلمة ، وبمجلس فيه محب ومبغض (34).
وقال الخطابي - رحمه الله تعالى -: "إن هجرة أهل الأهواء والبدعة دائمة على مر الأوقات والأزمان ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق (35).
- يتبع -

الهوامش:

1- شرح السنة ، 1/226-227.

2- فتح الباري ، 10/496.
3- بواسطة تحفة الإخوان ، 45.
4- صحيح مسلم 1/27 ، مصنف عبد الرزَّاق 11/114 برقم:20072.
5- اللالكائي برقم 199.
6- المصدر السابق برقم 196.
7- المصدر السابق برقم 200 ، والطبراني في الأوسط ، كما في مجمع الزوائد 7/204.
8- اللالكائي 3/638 برقم 1149 ، والبربهاري برقم 130 والحلية لأبي نعيم 8/103.
9 - اللالكائي برقم 261.
10- المصدر السابق برقم 262،263 ، وابن بطة في الإبانة 1/32 ب.
11- المصدر السابق برقم 264 ، وابن بطة في الإبانة 1/42 أ.
12- المصدر السابق برقم 265 ، وابن بطة في الإبانة 1/42 ب.
13- المصدر السابق برقم 267.
14- الحلية 8/84 وما بعدها.
15- المصدر السابق برقم 260 ، والآجري في الشريعة 1/64.
16- ص/60.
17- شرح أصول اعتقاد أهل السنة 3/636 ، رقم 1140.
18- اللالكائي برقم 231، وابن بطة 1/43 ب.
19- المصدر السابق برقم 248، وعبد الرزاق في المصنف برقم 20099 وابن بطة في الإبانة 1/40 ب.
20- اللالكائي برقم 249، وابن بطة في الإبانة 1/40 أ.
21- المصدر السابق برقم 252 ، وابن بطة في الإبانة1/42 أ.
22- المصدر السابق برقم 253.
23- المصدر السابق برقم 259 ، والآجري في الشريعة 1/64.
24- المصدر السابق برقم 273.
25- المصدر السابق برقم 274.
26- المصدر السابق برقم 291.
27- المصدر السابق برقم / تفسير القرطبي 7/13.
28- - اللالكائي برقم 240 ، والدارمي برقم 470 ، وابن بطة في الإبانة 1/40 أ.
29- اللالكائي برقم 242 ، وابن وضاح ، 53 ، والآجري 1/57 ، وابن بطة في الإبانة 1/40 ب.
30-اللالكائي برقم 242، وابن وضاح ص53 ، والآجري 1/57 ، وابن بطة في الإبانة 1/40 ب.

31- اللالكائي برقم 246 ، وابن بطة في الإبانة 1/40 أ ، ب.
32- فتح الباري 1/40.
33- فتح الباري 1/41.
34 - فتح الباري 1/41 وترجمة البخاري: "باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين
35 - معالم السنن 4.

ردود ومناقشات

متى نكون أعلم بأمور ديننا؟!

سامي السويلم

ظلت السنة على مر العصور عَلماً يستهدي به سلف هذه الأمة وأئمتها في عقائدهم وأخلاقهم ، ونوراً يستضيئون به في عصور الظلام والفتن ، ولم تزدها شبهات المشككين ودعايات المضللين سوى ثباتاً ورسوخاً في قلوب أهلها ، وأتباعها مصداقاً لقول الله - تعالى -: ((ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ والْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ))[الرعد:17].

وتواجه السنة اليوم شُبهاً عديدة ، منها ما هو ترديد لشبهات السابقين (1) ، ومنها ما هو حديث العهد ، قريب النشأة. وقد تكفل في السلف الصالح برد تلك الشبه التي ثارت في عصورهم ، وأما ما استجد اليوم فإنه يستوجب على المسلمين عموماً - وعلمائهم خصوصاً - التصدي لها وبيان بطلانها ، خصوصاً تلك الشبه التي اختلط فيها الحق بالباطل ؛ مما قد يروج على بعض المسلمين.

وكان من هذه الشبه الحديثة: دعوى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أعطى لنا الحق المطلق في تنظيم أمور دنيانا ، حتى ولو كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد قال فيها حكمه ، اعتماداً على ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة وأنس - رضي الله عنهما -: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مر بقوم يلقحون. فقال: "لو لم تفعلوا لصلُح" ، قال: فخرج شيصاً. فمر بهم فقال: "ما لنخلكم؟" قالوا: قلت كذا وكذا. قال: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" (2).

فجعلوا هذا الحديث سنداً لهم في رد كثير من النصوص المتعلقة بأمور السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وشئون الحرب والسلم ، بل وحتى نصوص الطب ؛ بحجة: أنَّا أعلم بأمور دنيانا!

فيا ليت شعري! ما الذي يبقى بعد من شريعة الإسلام؟ ، أترى النبي - صلى الله عليه وسلم- قد جاء ليعلّمنا الوضوء والعبادات فحسب: ((سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)) [النور:16].

وليس غريباً أن تنشأ مثل هذه الشبهة في هذا الزمان الذي قُدس فيه العقل البشري ، وأُعطي من الصلاحيات ما لم يُعطَه في أي زمان مضى ، حتى أوج زمان المعتزلة وأشياعهم.

وقد فتن كثير من المسلمين بمدنية الغرب وتنظيمهم لأمور معاشهم ، وتحت ضغط الانهزام النفسي والشعور بالتبعية ، راحوا يبحثون عن كل ما من شأنه أن يبرر لهم التملص من أحكام الإسلام ، ومحاولة تقريبه من أحكام الغرب ونظمه ، وصدق فيهم قول الشاعر:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فأول خطأ قاد هؤلاء إلى هذه الدعوى هو هذا الموقف النفسي الذليل ، وكأنهم نسوا قول الله-عز وجل-:((ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ))[ال عمران:139]

أما استدلالهم بهذا الحديث ، فقد أخطأوا فيه لسببين:

الأول: اقتصارهم على إحدى روايات الحديث ، وإهمالهم سائر طرقه وألفاظه.

الثاني: غفلتهم عن النصوص الأخرى المتعلقة بنفس الموضوع ، ووجه العلاقة بين هذه النصوص جميعاً .

ونحن نحاول في هذه العجالة أن نذكر ما تبين لنا في ذلك ، وإلا فالموضوع بحاجة لمزيد من البحث والدراسة. فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: أما روايات الحديث فقد ساق له الإمام مسلم في صحيحه (3) عدداً من الطرق ، كما يلي:

- ساق بإسناده إلى موسى بن طلحة عن أبيه قال:مررت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بقوم على رؤوس النخل ، فقال: "ما يصنع هؤلاء؟" فقالوا: يلقحونه. يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "ما أظن يغني ذلك شيئاً" قال: فأخبروا بذلك فتركوه. فأخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك فقال: "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ؛ فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن. ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ؛ فإني لن أكذب على الله (عز وجل)".

- ثم ساق بإسناده إلى رافع بن خديج - رضي الله عنه - قال: قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم يؤبِّرون النخل - يقولون يلقحون النخل - فقال: "ما تصنعون؟" ؛ قالوا: كنا نصنعه. قال: "لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً ، فنَفَضت أو نقصت ، قال: فذكروا ذلك له. فقال: "إنما أنا بشر. وإذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر" ، قال عكرمة - أحد الرواة -: أو نحو هذا.

- ثم ساق الحديث من طريق عروة عن عائشة ، وثابت عن أنس ، الحديث بلفظه المذكور أول المقال.
ويلاحظ من خلال هذه الروايات ما يلي:
1 - أن الروايات وإن تعددت ألفاظها فهي تحكي قصة واحدة. إذ حاشا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتكرر منه الخطأ نفسه أكثر من مرة. وعليه فإن الروايات المذكورة يفسر بعضها بعضاً. والتعدد في الألفاظ مرجعه إما إلى الرواية بالمعنى. كما قال عكرمة: أو نحو هذا ، وإما إلى الاختصار من جهة الراوي.
2- أن رواية طلحة - رضي الله عنه - أكثر الروايات وضوحاً وتفصيلاً ، ولا غرو ، فإنه قد شهد هذه الواقعة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ، بخلاف سائر الصحابة الرواة للقصة - رافع وعائشة وأنس - رضي الله عنهم - فليس في رواياتهم ما يدل على شهودهم لها.
3 - أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رأى القوم يلقحون سألهم - كما في حديث رافع -: "ما تصنعون؟" وفي حديث طلحة: " ما يصنع هؤلاء؟ " وكان - والله أعلم - سؤال استفهام واستعلام مما يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يعرف التلقيح من قبل ؛ خصوصاً أن سؤاله وقع أول مَقدِمه المدينة كما أشار لذلك رافع - رضي الله عنه - وهذا كسؤاله - عليه السلام - عن الرطب: "أينقص الرطب إذا يبس؟" (4) ، فمجموع هذا يدل على أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يكن له خبرة تامة بالزراعة ، وهو أمر لا يستغرب ممن نشأ في مكة ، فإن أهل مكة كان الغالب عليهم التجارة ، بخلاف أهل المدينة فإنهم أهل زرع.
وهذا يفسر قوله - عليه السلام - في حديث عائشة وأنس: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" ؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال هذه العبارة فيما لم يكن له به علم تام وخبرة تامة. وكان المخاطَبون أعلم به منه ؛ ولهذا أضاف: "الدنيا" إليهم في قوله "دنياكم" لا أنهم أعلم منه بالدنيا مطلقاً ، فإنه - عليه السلام - كان أعلم منهم بشئون الحرب والسياسة ، وتدبير الأمة ، وتصريف مصالحها ، وغير ذلك من أمور الدنيا. فعلم بذلك أن المراد بالدنيا في قوله: "دنياكم" ما لم يكن عند النبي -صلى الله عليه وسلم- منه علم تام. وليس المراد عامة أمور الدنيا. وسيأتي كيف يمكننا التفريق بين الأمرين.
4- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال للذين يلقحون النخل - كما في حديث طلحة -:"ما أظن يغني ذلك شيئاً" فلم يكن رأيه - عليه السلام - آنذاك سوى ظناً ، وهو كقوله في حديث رافع: "لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً" فهو لم يجزم في رأيه ولم يخبر به خبر المتيقن من صوابه. بل قاله على سبيل الظن والترجي. وقد نص هو - عليه السلام - على ذلك في قوله: ".. فإني إنما ظننت ظناً.." وهذا يبين أن قوله في حديث عائشة وأنس - "لو لم تفعلوا

لصلح " - هو بالمعنى ، وأنه على سبيل الظن لا الجزم كما هو ظاهر العبارة.
قال الإمام النووي: "قال العلماء: ولم يكن هذا القول خبراً ، وإنما كان ظناً كما بينته الروايات" (5).
5- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين ما الذي يلزمنا الأخذ به مما لا يلزمنا من كلامه -صلى الله عليه وسلم- ، فقال في حديث طلحة: ".. فلا تؤاخذوني بالظن. ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله - عز وجل -" فمقتضى القسمة في هذا الحديث أن كل ما جزم به النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو من عند الله (6) ، ويجب علينا الأخذ به ، بخلاف ما ظنه ولم يجزم به ، فمقتضى الحديث أن ما كان كذلك فهو ليس من عند الله ، ولا يجب علينا الأخذ به. يوضح ذلك: أن النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا يجزم إلا بما يعلمه ويتيقنه ، ومن الممتنع أن يكون علمه بالشيء مخالفا لحقيقته.
أما الأول: فإن الله أدّب نبيه بقوله: ((ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ))[الإسراء: 36].
وأما الثاني: فقد عصم الله - تعالى - نبيه عن الكذب وعن إضلال الأمة. وهو - عليه السلام - أنصح الخلق لأمته ، فإذا علم شيئاً فإنه مبلّغه لها بمقتضى نصحه ، وقياماً بواجب البيان والبلاغ. وإذا بلغ أمته شيئاً وأخبرها به جزماً ، وكان المخبر مخالفاً للخبر ؛ كان ذلك كذباً وضلالاً للأمة بلا شك. وقد عصمه الله - تعالى - من الأمرين جميعاً ، إما ابتداءً وإما تسديداً بالوحي.
ويشهد لصحة القسمة المذكورة آنفاً قوله - عليه السلام - حديث رافع: "إذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر" فالتنكير في قوله: "بشيء من رأي" مشعر بأن المراد ما كان على غير وجه الجزم والإلزام ، بل على وجه المشورة والاقتراح فحسب (7).
يوضح ذلك أن كلمة "رأي" تستعمل فيما كان ناتجاً عن الخبرة البشرية مما هو قابل للخطأ والصواب ، كما في السيرة أن الحباب بن المنذر قال للنبي - صلى الله عليه وسلم- يوم بدر: "يا رسول الله! ، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟" (8) وما كان كذلك فحاشا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجزم به ، وهو يعلم أنه يرد عليه الخطأ ، والجزم بالشيء إنما هو لتيقن صاحبه منه - طلباً أو خبراً -والعرب لا تسمي مثل هذا اليقين: رأياً.
فقوله - عليه السلام -: "بشيء من رأي" واضح في أن المراد ما كان أقرب إلى المشورة والاقتراح ، لا إلى الجزم واليقين.
فتحصل مما تقدم أن مقتضى القسمة في كلا الحديثين: أن كل ما جزم به النبي -صلى الله عليه وسلم- - طلباً أو خبراً - فهو من عند الله - تعالى - (9) ، ومن ديننا ؛ فيلزمنا الأخذ به ، وأما ما كان من كلامه -صلى الله عليه وسلم- ظناً أو رأياً ، فقد رخَّص لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في الأخذ به أو تركه.

وليست القسمة كما فهمها أصحاب الشبهة: أن ما كان من أمور الدنيا مطلقاً فهو إلينا ، وما كان من أمور الدين فهو إليه - عليه السلام - والله أعلم.
فإن قلت: قد أكثرت من الشرح والتقسيم ، فهلاّ أتيت بمثال يوضح عبارتك ويؤيد مقالتك!.
فالجواب: أن أقرب مثال - والأمثلة متوافرة - هو ما رواه البخاري في صحيحه (10) من حديث ابن عباس - رضي الله عنه - في قصة بريرة لما خالعت زوجها مغيثاً - وكان شديد التعلق بها - وفيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لبريرة: لو راجعته ، قالت: يا رسول الله! تأمرني؟ ؛ قال: إنما أن أشفع ، قالت: لا حاجة لي فيه. قال الحافظ (11): وعند ابن مسعود من مرسل ابن سيرين بسند صحيح: "فقالت: يا رسول الله! أشيء واجب عليَّ؟ قال: لا".
فقوله -صلى الله عليه وسلم- لبريرة: "لو راجعته لا يعدو كونه مشورة واقتراحاً كما بيَّن ذلك -صلى الله عليه وسلم- ، وليس جزماً فيجب عليها الأخذ به ، وقارن بين قوله - عليه السلام -: "لو راجعته" وقوله: "لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً" كيف تجدهما يصدران نفس المصدر والله أعلم.
فإن قلت: إن تقييدك لحديث التلقيح - بما كان على سبيل الظن والرأي - هو تخصيص للحديث بسببه ، وتد تقرر في الأصول أن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"؟.
فالجواب: أن هذه القاعدة محل نزاع عند كثير من أهل العلم ، أولاً.
وثانياً: أن الفرق كبير بين مجرد ورود العام على سبب ، وبين أثر السبب والسياق والقرائن في تخصيص العام - وهو ما نحن بصدده - كما نبه على ذلك العلامة ابن دقيق العيد.
وثالثاً: مع التسليم بالقاعدة فإن الأخذ بها مقيد بعدم قيام المعارض ، فأما مع وجوده فإن من طرق الجمع حمل العام على سببه دفعاً للتعارض وإعمالاً لكل نص في مجاله (12). ولو أخذنا بعموم لفظ حديث التلقيح ، خصوصاً حديث عائشة وأنس - رضي الله عنهما - دون النظر في سببه وسياقه لوجدنا نصوصاً كثيرة متظاهرة تعارضه وتصادمه ، ونحن نذكر هذه النصوص لأهميتها ولبيان وجه العلاقة بين هذه النصوص جميعاً.
ثانياً: وأما سائر النصوص في هذا الباب فهي على نوعين: عام وخاص.
أما العام: فكقوله - تعالى -: ((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذَا قَضَى اللَّهُ ورَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)) الآية [الأحزاب:36] ، فبيَّن - تعالى - أنه لا خيار لنا أمام قضائه - تعالى - في القرآن ، وقضاء رسوله -صلى الله عليه وسلم- في السنة.
وقوله - تعالى -: ((فَلْيَحْذَرِ الَذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))[النور:63].
وقوله "أمره" مفرد مضاف ، فيعم كل أنواع أمره - عليه السلام -.

وكقوله - عليه الصلاة والسلام -: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم" (13).
فعلق الأمر على الاستطاعة لا على نوعية المأمور به.
وأما الخاص: فمنه ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال: "كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أريد حفظه. فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشر يتكلم في الغضب والرضا. فأمسكت عن الكتاب.فذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: "اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق" ، وأشار بيده إلى فمه (14).
وصح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن الصحابة قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "إنك تداعبنا؟" فقال - عليه السلام - "إني لا أقول إلا حقاً" ، أخرجه أحمد والترمذي (15).
وإذا كان كل ما يقوله -صلى الله عليه وسلم- حقاً في الغضب والرضا ، في الجد والمزاح ، فلا رخصة لنا حينئذ في الإعراض عنه.
فهذه النصوص أظهر وأبين في الدلالة من حديث التلقيح. ولو سلكنا سبيل أصحاب الشبهة لأخذنا بهذه النصوص وأعرضنا عن حديث التلقيح. ولكن كلا الطريقين خطأ.
والذي عليه سلف هذه الأمة هو الأخذ بنصوص الوحي جميعاً ، والعمل بكل منها على وجهه الذي جاء عليه. ولا يضربون كلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- بعضه ببعض.
ويقولون: ((آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا))[آل عمران:7].
فإن قلت: فما وجه الجمع بين حديث التلقيح وبين النصوص التي ذكرت؟.
قلت: وجه الجمع - والله أعلم - يتلخص فيما يلي:
أولاً: أن الأصل ، والقاعدة العامة هي الأخذ بأمره وقوله - عليه السلام - مطلقاً دون استفصال ، ودون الحاجة إلى البحث عن قرينة خاصة تُلزمنا بذلك النص.
وهذا الأصل هو مقتضى العموم في النصوص الملزمة باتباع أمره - صلوات الله وسلامه عليه - فإنها لم تفرق بين أمر وأمر ، أو بين نص ونص ، بل عممت الإلزام بها جميعاً. ويقابل هذا الأصل العام:
ثانياً: ما يمكن أن يُستثنى من هذه القاعدة العامة بمقتضى حديث التلقيح وهو ما كان منه - عليه الصلاة والسلام - على سبيل الظن والرأي ، لا الجزم والحكم.
ولا تعارض بين حديث التلقيح وبين حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا أخبرنا بأنه يظن كذا ، فما قال إلا الحق

، وإذا أشار علينا بشيء على سبيل الرأي ، فلم يعد الحق. إذ المشورة نفسها من لحق ، ولا يمكن أن يتأتى مثل هذا الجمع على مقتضى قول أصحاب الشبهة ، وبالله التوفيق.

فإن قلت: ومتى نعرف أن حديثاً ما هو على سبيل الظن والرأي أو على سبيل الجزم؟.

قلت: لا يحق لنا القول بأن حديثا ما هو على سبيل الظن أو الرأي إلا بعد قيام قرينة خاصة وأمارة ظاهرة تفيد هذا المعنى. والنبي عليه السلام أنصح الخلق وأصحهم لأمته ، فلو أراد أن يشير علينا برأي دون إلزام لبين ذلك. ولو أراد إخبارنا بما يظنه لا ما يعلمه ، لبين ذلك ، صلوات الله وسلامه عليه. وما لم تقم تلك الأمارة الظاهرة ، وتلك القرينة البينة ، فهذا كافٍ في وصف الحديث بكونه على سبيل الجزم والإلزام ، وهذا مقتضى الأصل الذي قررناه آنفاً.

هذا ما تيسر لنا في هذه المسألة ، فمن كان عنده فضل علم أو تصحيح خطأ فلا يبخل به. والله تعالى أعلم. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الهوامش:

1- كشبهة رد أحاديث الآحاد في العقائد ، والاكتفاء بالقرآن عن السنة ، وتحكيم العقل في السنة وغيرها.

2 - صحيح مسلم ، ط عبد الباقي 4/1836.

3- 4/1836 ، ولم نعثر على من خرّج الحديث سوى الإمام مسلم. وقد اقتصر الحافظ السيوطي في عزو الحديث عليه. ووافقه على ذلك الشيخ الألباني. فالله أعلم ، انظر صحيح الجامع رقم (1500).

4- رواه الخمسة وصححه الترمذي ، انظر نيل الأوطار ، 5/308.

5- في شرحه على صحيح مسلم 15/116.

6- المراد: عن الله تعالى إما نصاً - أي وحياً من الله كالقرآن والأحاديث القدسية ونحوها - وإما إقراراً ؛ بأن يجتهد النبي - عليه السلام - في أمر فيقره الله - تعالى - على ذلك. فبإقرار الله - عز وجل - لاجتهاد النبي - عليه السلام - صار اجتهاده حكماً لله - تعالى - قال - تعالى -: ((مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ))[النساء:80].

7 - هذا وما بعده بناءاً على ثبوت لفظة "الرأي" ، وإلا فقد قال النووي 15/116: مع أن لفظة الراوي إنما أتى بها عكرمة على المعنى ؛ لقوله آخر الحديث: أو نحو هذا ، فلم يخبر بلفظ النبي -صلى الله عليه وسلم- محققاً ا.هـ. ومهما يكن فحديث طلحة صريح في المعنى لا يحتمل التبديل المخل.

8- تهذيب سيرة ابن هشام ، 143.

9- انظر: هامش رقم 6 من الصفحة السابقة.

10 - من فتح الباري ، 9/408.

11 - المصدر السابق ، 9/409.
12- مثال ذلك: حديث ليس من البر الصيام في السفر. مع سائر النصوص المتظاهرة بإجازة الصيام في السفر مطلقاً ، جمع بينهما العلماء بحمل الأول على سببه ، انظر في هذا المثال ومقالة العلامة ابن دقيق العيد. نيل الأوطار 4/306.
13- أخرجاه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - راجع الأربعين النووية.
14- انظر في هذا الحديث: صحيح الجامع ، 1207 ، وحجية السنة للأستاذ عبد الغني عبد الخالق ، فقد استوفى الكلام على طرقه ورجاله ، ص4،431،316 37.
15- صحيح الجامع ، 2490،2505.

فن المقالة

منصور الأحمد

المقالة فن من فنون الأدب ، له أصوله ، ومميزاته ، وأهميته ، وهذا الفن - كما أنه يكون سبباً في شهرة بعض الكُتاب - إلا أن كثيراً منهم يسئ استخدامه ، ويفشل أن يبني بينه وبين القراء جسراً بواسطته.
أما أهمية المقالة فهي سبيل مطواع يستطيع الكاتب أن يسخره لما يريد من الأفكار الخاصة أو العامة ، العلمية أو الأدبية ، ويمكن أن توصل هذه الأفكار بسرعة ودون التواء في أكثر الأحيان.
وقد حظيت المقالة في أدبنا العربي - قـديمـاً وحديثاً - بمكانة لا يستهان بها ، ونستطيع أن نرصد خطواتها وتطورها.
وهى كغيرها من الفنون الأدبية ، أدركها ويدركـهـا التطور حسب ما يقتضيه تطور الأفكار والأساليب ، وحسب الظروف الثقافية والفكرية الـسـائدة ، وقد ساعدت الصحافة وحركة النشر على ازدهار المقالة.
على أننا لا نريد في هذه العجالة أن نكتب بحثاً أدبياً وافياً عن ذلك ، بل نحب أن نلفت النظر إلى أن المجلات ، ومنها مجلتنا (البيان) - إنما تـعـتـمـد فـي جل ما تنشر على هذا الجانب من أساليب الكتابة ، ونجاحها مرهون بإدراك كُتابها لما يجب أن تتميز به المقالة عن غيرها من فنون الكتابة.
والهدف من المقالة هو تقديم فكرة معينة إلى القارئ بأسلوب يختاره الكاتب ، وحتى تحقق المقالة الغرض منها لابد أن يتوفر فيها:
وضوح الفكرة ، وضوح الأسلوب وجماله ، وهذان الشرطان يلتقيان على قاعدة سابقة في ذهن الكاتب ، وهي: معرفته بمَن يخاطب.

1 - الموضوع أو الفكرة:

يعتبر موضوع المقالة المحور الأساسي لها ، وهو الهدف منها ، وبقدر احتفال الكاتب به تحديداً وتوضيحاً يصل إلى هدفه في الإقناع. وأكبر الأخطاء التي تُرتكب في المقالات الفاشلة أن لا يكون موضوعها واضحاً في ذهن كاتبها ، وأن تكون الفكرة التي تدور عليها غامضة مبهمة ، أو ليست ناضجة ، أو ضائعة في خضم كلام لا يعرف كاتبه العلاقة الصحيحة بينه وبين الفكرة.

2- الأسلوب:

الأسلوب هو القالب اللفظي الذي تصب فيه الفكرة ، مضافاً إليه الروح ، أو قل: النكهة التي تُحس أو تدرك من هذا الأسلوب ، والتي تميز كاتباً عن آخر ، وهي التي عناها من قال: الأسلوب هو الأديب نفسه ، هي بصمته وتوقيعه الذي لا يمكن تزويره.

فالأسلوب ليس كلمات مرصوفة رصفاً ، أو منتزعة من هنا وهناك لأدنى علاقة ، أو بدون علاقة في بعض الأحيان ، بل هي حصيلة دراسات الكاتب ومطالعاته ، ومجمل ثقافته ، إضافة إلى سمات مزاجه وطبعه.

والأسلوب الناجح يتميز: بالوضوح والجمال.

أما الوضوح فيكون باختيار الألفاظ المطابقة للمعنى ، والبعد عن تتبع الغرائب ،والحرص على طرائق التعبير العربية ، والبعد قدر الاستطاعة عن العجمة التي أصبح التخلص في هذه الأيام منها هماً ناصباً.

وأما جمال الأسلوب فهو شيء يصعب تحديده؛ لأن مبناه على الذوق، وهذا الذوق يربَّى ويصقل بالقراءة وتتبع الآثار الأدبية الراقية.

إذا عرفنا هذا اتضح لنا أن المقالة ليست خطبة ملتهبة هدفها إثارة العواطف وشحن الخواطر بالكلمات والجمل المهيجة بعيداً عن الإقناع.

وليست بحثاً هدفه إظهار قدرة الكاتب على البحث والتنقيب والتوثيق ،وإثقال الهوامش بالمراجع والإحالات.

ولـيـسـت فــرضـــاً لمنهج علم معين في التأليف، وإرباك القارئ بمصطلحات لا يدري عنها شيئاً، أو يدري عنها القليل!

إنها باختصار فن أدبي جميل ، يشتمل على موضوع رئيسي يراد إيصاله إلى القارئ بطريق رشيق مقنع ، بعيد عن الإملال والإرهاق ، ويتلطف إليه بمدخل أو استهلال يكون بمثابة الاستئذان للدخول إلى عقله وقلبه ، وأن لا يُغادَر إلا وقد اطمأن الكاتب أن ما يريده قد وصل ، فيلملم أطراف موضوعه بخاتمة تكون بمثابة التوديع الذي لا يكون إلا عن تعارف وتصاف ووثاقة صلة.

في مكان آخر من هذا العدد وضعنا مثالاً تطبيقياً لمقالة أدت الغرض منها (1) ، فهي ليست بالطويلة ، و ليست بالقصيرة ، واستوفت شروط سهولة الألفاظ والتراكيب مع جمالها وقوة تأثيرها ، ووضوح الفكرة الرئيسية التي صاغ الكاتب من أجلها مقالته ، وحسن استدلاله عـلى ذلك من الـواقـع الـعـمـلـي والـتـاريـخـي للإسـلام، ثم إدراكه للأصول دون الغرق في الـتـفـاصـيل التي لا

تغني شيئاً وقد ذهبت الأصول، فقد درج الكاتبون في شأن الهجرة أن يـشـغـلـوا أنفسهم ويشغلوا الناس في سرد وقائع الهجرة، دون الخوض في دلالتها العملية العميقة التي يحتاجها المسلمون الـيـوم ، فأراد أن يتخذ من حادثة الهجرة دافعاً مستمراً متجدداً للإصلاح وعلاج المشاكل المصيرية التي تكاد تعصف بالكيان الإسلامي.

الهوامش:

1- مقال: من إلهامات الهجرة.

من إلهامات الهجرة (*)

محب الدين الخطيب
(رحمه الله)

[مدخل: فرق بين الإسلام وغيره من الأديان]

في الإسلام ظاهرة يمتاز بها على غيره من الأديان التي تموج أقطار الأرض بأتباعها ، فأهل الديانات الأخرى ينحصر مـعـنـى (الدين) عندهم في العقيدة والعبادة ، فإذا ضُمنتا لهم في أي نظام من أنظمة الحكم اكتفوا بـهـمـا ، وأذعـنـوا لـذلك النظام مهما كان ، ولا يعرفون دينهم إلا ساعة الاجتماع في المعابد. أما الإسلام فكما أنه دين عقيدة وعبادة - فإنه يشمل أيضاً الآداب في المنازل والمجتمعات ، والتعاون بين الأفراد والجماعات ، ويتناول العقود والمصالح والالتزامات ، وتتسع دائرته فتحيط بنظام الحكم كله.

***

حكمة الهجرة الأساسية:

والمسلمون لا يعتبرون أنفسهم عائشين في بلد إسلامي ، إلا إذا سـاد نـظـام الإسلام بلدهم ، وقـامـت فـيـه أحكامه وبدابه ، كما تقوم فيه شعائره وتسود عقائده ، وإذا تـعـذر عـلـى المسلمين إقامـة أحـكـام ديـنـهـم ، وتأييد أنظمته الاجتماعية ، وآدابه الخلقية والبيتية - وجب عليهم الانتقال إلى البلد الـذي يـعـمـل فـيـه بأحكام الإسلام وآدابه ، تكثيراً لسواد المسلمين ، وإعزازاً لأمر الدين ، واستعداداً لنصره وتـأيـيـده فـي الـعـالـمـيـن . وإذا لم يكن للمسلمين بلد تتوافر فيه هذه الشروط ، وجب عليهم أن يتجمعوا في بقعة صالحـة يقـيـمون فيها نظام الإسلام تاماً كاملاً ، ويتعاونون على حماية دعوته ، واتخاذ الأسباب والوسائل لتحقيق رسالة الإسلام كما جاء بها صاحبها - صلوات الله عليه - وكما فهمها منه أصحابه والتابعون لهم بإحسان.

هذه هي حكمة (الهجرة) ، وهذا هو الباعث عليها والداعي لها ، فالإسلام يجب أن يكون له وطن تُقام فيه معاني الإسلام كلها ، ويعمل فيه بأحكامه وأنظمته

في دواوين الدولة ، ومرافق الأمة ، ومعاملات الأفراد، وآداب البيوت ، بقدر ما يعمل فيه بشعائر العبادات، وبقدر ما تحمي فيه حقائق العقيدة التي لا يكون الإسلام إسلاماً إلا بها.

***

دليل قرآني تاريخي

وقد غفل عن هذه الظاهرة من أمر الإسلام بعض الذين دخلوا فيه على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فلبثوا في وطنهم (مكة) مستضعفين فيها لا يستطيعون إعلاء كلمة الله ، لغلبة الباطل يومئذ على الحق ، ولا يهاجرون منها إلى المدينة فيقوى بهم الإسلام. فنزل فيهم قول الله - عز وجل -: ((إنَّ الَذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ)) (أي بعد إقامة دينهم في بلدهم ، وتخلفهم عن نصره وتأييده في دار هجرته) ((قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيراً)) هذه الآية نزلت في قوم أسلموا ، وكانوا يؤدون صلواتهم على النهج الشرعي في منازلهم أو في الحرم إن استطاعوا ، وكانوا صحيحي العقيدة ، وغير مقصرين في العبادة ، إلا أنهم كانوا سبب ضعف الإسلام ؛ بإذعانهم لنظام غير نظامه ، وإحجامهم عن تقوية الإسلام في وطنه ودار هجرته. ولما كان الإسلام دين يسر ، ومن مبادئه أن تقدر الضرورات بقدرها ، وأن يعذر أهلها ، كان تمام الآيات السالفة قول الله - عز وجل - ((إلاَّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ولا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكَانَ اللَّهُ عَفُواً غَفُوراً. ومَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً)) (أي مذهباً وتحولاً) ((كَثِيراً وسَعَةً ومَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً)) [النساء:97-100].

***

قلب الموضوع (الهدف الذي من أجله كتب الكاتب)

إن النفس الإسلامية يريدها الإسلام أن تعيش في جو من النظام والحكم يسهل لها فهم هداية الإسلام ، ويحبب إليها العمل بهذه الهداية في كل ضرب من ضروب الحياة ، وتتوفر فيه حرية الدعوة إلى كل ما ينشده الإسلام من حقيقة وخير ، فيتيسر القيام بهما جهاراً في جميع أحوال الفرد المسلم والجماعة الإسلامية ، ويكون فيه للحق قوة تقمع كل من يصد عن ذلك ، أو يحُول بين المسلمين وبين الدعوة إلى هدايتهم والعمل بها في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم ومجتمعاتهم. فإذا نشأت النفس الإسلامية ونمت تحت جناح نظام يقيم أحكام الإسلام ويحمي دعوته ويحمل الأمة على آدابه ، كانت هذه النفس قوة للإسلام ، تعمل على رفعته وتوسيع دائرته ، وكانت غصناً في دوحة الإسلام تزهر وتورق وتثمر في جناته. أما إذا نشأت ونمت تحت جناح

نظام يخالف الإسلام، ويخذل دعوته، ولا يربي الأمة على آدابه ، فإن قوتها تكون معطلة عن تأييد الإسلام وتعميم هدايته.
إن (الهجرة المحمدية) من ديار الشرك إلى دار النصرة قد مضت بأهلها ، ولكن (الهداية المحمدية) لا تزال في أمانة المسلمين ، وهي في عصرنا والعصور الآتية أحوج ما كانت إلى تفكير المسلمين في صيانتها ، والتماسهم الأسباب لازدهارها وتعميم العمل بها.
لما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأصحابه من ديار الشرك إلى دار النصرة ، وكان للإسلام - على قلة أهله يومئذ - قوة بتلك القلة من أهله لا نكون صادقين لو زعمنا أن عندنا للإسلام مثلها اليوم مع كثرتنا واتساع آفاق أوطاننا ، فإن كانت الهجرة قد مضت بأهلها فإن القوة التي توخاها النبي -صلى الله عليه وسلم- للإسلام بالهجرة ، لا تزال أنظمة الإسلام وآدابه وأهدافه مفتقرة اليوم وبعد اليوم إلى مثلها ، بل هي اليوم وبعد اليوم أشد افتقاراً إلى مثل تلك القوة مما كانت في زمن الهجرة.

***

نحن محتاجون اليوم - من معاني الهجرة وأهدافها وحكمتها - إلى أن ننخلع في بيوتنا عن الآداب التي تخالف الإسلام ، وأن نعيد إلى هذه البيوت الصدق والصراحة والنبل والاستقامة والاعتدال والمحبة والتعاون على الخير ؛ فالبيت الإسلامي وطن إسلامي ، بل هو دولة إسلامية. وقبل أن أتبجح فأنتقد ما خرج عن دائرتي من بيئات - لا يفيدها انتقادي شيئاً - يجب عليَّ أن أبدأ بمملكتي التي هي بيتي فأهاجر أنا ومن فيه من زوجة وبنات وبنين إلى ما يحبه الله من الصدق ، هاربين من الكذب الذي يكرهه الله ويلعن أهله في صريح كتابه.
ويجب أن أنخلع أنا وأهل بيتي عن رذيلتَيْ الإفراط والتفريط ؛ فنكون معتدلين في كل شيء ، لأن الاعتدال ميزان الإسلام ، ويجب أن نحب أنظمة الإسلام محبة تُمازج دماءنا ، فنتحرى هذه الأنظمة في أخلاقنا وأحوالنا وتصرفاتنا ومعاملة بعضنا لبعض ، (هاجرين) كل ما خالفها مما اقتبسناه عن الأغيار وخذلنا به مقاصد الإسلام فضيعنا أغراضه الجوهرية.
إذا تربينا في بيوتنا على محبة الأنظمة الإسلامية ، وتأصل ذلك في أذواقنا وميولنا ، وتعودنا العمل به في مختلف ضروب الحياة ؛ فشا العمل به حينئذ من البيوت إلى الأسواق والأندية والمجتمعات ودواوين الحكم ، ولا يلبث الوطن كله بعد عشرات قليلة من السنين أن يتحول من وطن عاصٍ لله ، إلى وطن مطيع لله ، ومن وطن تسود فيه الأنظمة التي يسخطها الله إلى وطن تسود فيه الأنظمة التي أمر بها الله.

***

نقد لواقع وتصحيح لما هو شائع

نحتفل بذكرى الهجرة في كل سنة ونتكلم فيها عن الماضي فلا ننتفع بها في الحاضر. ولو أنَّا فهمنا الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة ، وعلمنا أن كتاب الله الذي نتلوه قد أنحى باللائمة على جماعة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا في مكة يصلون ويصومون ، ولكنهم ارتضوا البقاء تحت أنظمة تخالف الإسلام - فلا قوة لهم على تغييرها ، ولم يهاجروا إلى قلعة الإسلام ليكونوا من جنودها المتحفزين لتغيير تلك الأنظمة - لعلمنا أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة والصوم ، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا أنظمته وآدابه في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم ومجامعهم ودواوين حكمهم ، وأن عليهم أن يتوسلوا بجميع الوسائل لتحقيق هذا الغرض الإسلامي ، بادئين به من البيت ، وملاحظين ذلك في تربية من تحت أمانتهم من بنات وبنين ، ومتعاونين عليه مع كل من ينشد للإسلام الرفعة والازدهار من إخوانهم ، حتى إذا عم هذا الإسلام أرجاء واسعة تلاشت تحت أشعته ظلمات الباطل ، فكانت لهذا الأسلوب من أساليب الهجرة مثل الآثار التي كانت لهجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الأولين.

عود إلى الأدلة: الأدلة من السنة :

روى مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه عن أبي عثمان النهدي أن مجاشع بن مسعود السُّلمي قال: جئت بأخي (أبي سعد) إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد الفتح فقلت: يا رسول الله! بايعه على الهجرة ، فقال -صلى الله عليه وسلم-: قد مضت الهجرة بأهلها. قال مجاشع: فبأي شيء تبايعه؟ قال: "على الإسلام ، والجهاد ، والخير". قال أبو عثمان النهدي: فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع ، فقال: صدق.

وفى كتب السنن - وبعضه في الصحيحين - عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد بن ناقد الأنصاري أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "المهاجر من هجر السيئات".

وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة ، وفى حديث عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده ، أنه قيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ".. ما أفضل الهجرة؟ قال: من هجر ما حرم الله".

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل (6/21) من حديث فضالة بن عبيد بن ناقد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في حجة الوداع: "ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. والمسلم؟ من سلم الناس من لسانه ويده. والمجاهد؟ من جاهد نفسه في طاعة الله. والمهاجر؟ من هجر الخطايا والذنوب".

***

خاتمة تحض على صرف الأنظار إلى الغرض الأساسي:
فإلى الهجرة أيها المسلمون...

إلى هجر الخطايا والذنوب في أعمالنا ، وأخلاقنا وتصرفاتنا.
إلى هجر ما يخالف أنظمة الإسلام في بيوتنا ، وما نقوم به من أعمالنا.
إلى هجر الضعف والعطالة والإهمال والسرف والكذب والرياء ووضع الأشياء في غير مواضعها.
إلى هجر الأنانية والصغائر والسفاسف مما أراد نبي الرحمة أن يطهر منه نفوس أمته حتى تكون خير أمة أخرجت للناس كما أراد الله لها.
بهذا ، وبهذا وحده نحيي ذكرى الهجرة الشريفة ، ونحقق مقاصدها ، ونستمطر رحمة الله على بيوتنا ، وأوطاننا وممالكنا ، وهذا هو (الفلاح) الذي يدعونا إليه المؤذن خمس مرات في كل يوم عندما يدعونا إلى الوقوف بين يدي الله الكريم.
وبهذا تكون صلاتنا صلاة إسلامية تصقل نفوس المسلمين والمسلمات ، وتصفيها ، وترتفع بها عن السفاسف ، وتجعل هذه الشعيرة من شعائر الله - سبحانه -.
((إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ))[العنكبوت:45].

الهوامش:

* نموذج تطبيقي اخترناه لمقالة جيدة.

قصة قصيرة

الأسرة المسلمة

أم أسامة خولة درويش

لا عجب أن تستأثر (نبيلة) بقلبي ، فهي صديقة الطفولة والصِّبا ، شاركتني لهو الطفولة البريء يوم كنا نلعب ونمرح ، وزاملتني في الصبا بدماثتها وحبها للخير الذي ملأ فؤادها ومشاعرها فحظيت لديَّ بمكانة اختصت بها عمن سواها.
لقد حباها الله فضائل كثيرة فصانتها، لم تبطرها النعمة التي تقلبت بها، ولم يطغها الغنى الذي ترعرت فيه ، ولم يفسدها الجمال الباهر الذي يزري بالجميلات من بنات جنسها ، هذا فضلاً عما تمتاز به من أدب جم ، وعقل راجح ، ونظر سديد رغم صغر سنها ، فما إن نضج جسمها ونما عودها حتى تحلت بالحجاب الذي فرضه الله على المؤمنات ، فغدت بحق جوهرة مصونة ندر مثيلها.
ويحرص (عصام) أن يتزوج من (نبيلة) وهو جدير بذلك ، إنه من خيرة أقاربها ديناً وخلقاً ، علماً وأدباً ، مالاً وجاهاً.
وتمضي السنة الأولى من الزواج هانئة مطمئنة والحب الوارف يخيم على الزوجين السعيدين ، ولِمَ لا؟! والشرع رائدهما ، يلتزمان به فيؤدي كلٌّ

حق رفيقه بصدر رحب، وحب ودود، لتظلل أسرتها سعادة نادرة، وسكن حانٍ هانئ بعيد عن المشاكل والمنغصات .
تجد نبيلة في قيامها بواجباتها لزوجها وأهله عبادة تؤجر عليها ، فلا تسأم ولا تضجر ، ولا تمن عليه ولا تبخل بجهودها المخلصة وعواطفها الفياضة ، ويجد عصام أن إعطاء كل ذي حق حقه إنما هو واجبه كمسلم يسعى للقربى من الله - تعالى - فيحفظ في (نبيلة) وصية الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "ستوصوا بالنساء خيراً" ، فإن أخطأت أو ظهرت منها هفوة قال لها في مزاح ومداعبة ما أشبهها بالجد: "سنرفق بالقوارير ولن أدع قارورتي تُكسر أو تُخدش" ، فتضحك ويضحك ، ويعالجان الأمور بالحكمة ، فتنقشع الغيمة ، وما كادت تمر السنة الأولى من الزواج حتى بدأت التساؤلات ، وهمسات نساء الحي: لِمَ لمْ تحمل نبيلة؟!
وتقترب أم عصام من نبيلة لتحدثها بحنانها المعهود حديثها الهامس يمازجه حرصها وشغفها لمعرفة سبب عدم الحمل: "يا بُنيتي! إنك في عمر الزهور ، وهذه هي السن المثلى للحمل ، فلِم تؤجلين الحمل ، وأنت تعلمين ثواب تربية الولد الصالح ، ولست بحاجة إلى مَن يذكّرك؟!".
وكانت لحظة عصيبة ومؤلمة وصدمة غير يسيرة لأم عصام عندما قالت لها نبيلة: "إنني لا أستعمل أي عقار لتأجيل الحمل"... بُهتت أم عصام ولم تتمالك نفسها أن ترقرقت في عينيها دمعة حائرة حزينة على سعادة لم تكتمل. وتمر الأيام ويزداد حديث الناس ، ويزداد تحرق أم عصام وتعلقها بولد يكون وارثاً لابنها ، وذكراً له وللعائلة جميعاً ، إنها وإن كانت تحب نبيلة - ولكنها تعود وتردد المثل العامي: "ضلع أدنى من ضلع".
وتتشجع هذه المرة للحديث مع ابنها في هذا الموضوع ، بدلاً من جرح مشاعر نبيلة ، وخشية إيذاء أحاسيسها في أمر لا يد لها فيه ، وبنفس مفعمة بالمشاعر الكثيرة وفى مقدمتها الأحلام والأماني بولد يدرج في بيت ابنها قررت عرض الموضوع على عصام ، ويأتي الرد مماثلاً لما ذكرته نبيلة منذ سنتين: إنه لا يوجد أي عائق جسمي عندنا ، وإننا ننتظر الفرج".
"وودت لو أشارت عليه بالزواج ، وحارت كيف السبيل إلى إقناعه ، فهي تعلم مكانة نبيلة في قلبه ، بل وفي قلوب العائلة جميعاً ، قالت له وهي تغالب نفسها ، وبصوت ممزوج بالأسى والمرارة -: إن الله - تعالى - يقول: ((المَالُ والْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا)) ثم صمتت ، ثم نظرت إليه وكأنها تريد أن تقرأ ما في ذهنه من خواطر وما في قلبه من مشاعر ، ولم يطل الصمت ، فسرعان ما قطعه عصام وهو يتمم الآية: ((وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وخَيْرٌ أَمَلاً)).
اكتفت الأم بهذا الرد ، ولم تحتمل الجلوس فخرجت بعزيمة مزعزعة ، وقد أظلتها سحابة من الحزن ، وكأنما أُوصدت في وجهها أبواب السعادة كلها.

أما عصام فلم يستغرب طلب والدته ، لقد سمعه مراراً من زوجته ، نعم ، زوجته نبيلة المؤمنة ذات الرأي الصائب ، كانت تعرض عليه الزواج ويُسكتها قائلاً : "إنه يرضى بقدر الله وينتظر الفرج" وها هي ست سنوات مرت على زوجين ، ترفرف عليهما السعادة والهناء.
وجاء قدر الله ؛ فاليوم موعد زفاف "سامية" لعصام ، إنه يوم عصيب في حياة نبيلة لا لأن زوجها سيتزوج من امرأة غيرها ، فكل امرأة تود لو أن زوجها لها وحدها ، هاهم أهلها جميعاً - والدها ووالدتها وإخوانها... - قد جاءوا مبكرين ، إذ ما علموا بموعد الزواج إلا الليلة الماضية فقط ، وما كاد ظلامها ينقشع ويلوح ضياء الصباح حتى كانوا جميعاً عند بيت عصام ، إنهم يريدون ابنتهم ، نعم يريدون نبيلة... فلا مكان لها في البيت بعد اليوم... هذا رأيهم جميعاً. ولكن عصاماً قابلهم بصدر رحب وابتسامة رقيقة ، ودعاهم بلباقته المعهودة للدخول إلى المنزل قائلاً : "لن تروا في إلا ما يرضيكم أنتم ونبيلة فأنتم أهلي".
وقبل أن يتمها انبرى أخوها أحمد للكلام: إننا لسنا أ.. فأسكته والده.
ولكن من يسكت الوالدة؟ إنها تتحدث وتقول لابنتها: تعالي معنا معززة مكرمة ، أن بنت الفقر التي تخاف على نفسها من الجوع هي التي ترضى بالمذلة ، ولو كان يحبك لما أراد أن يتزوج عليك ، ولم يتم لنبيلة أن تسمع كل ما قالتها والدتها ، الكل يتحدى ويهدد بالخلاص والطلاق... وأصمتهم جميعاً قول نبيلة: "وهل التعدد حرام؟! ، أليس ديننا يبيح التعدد؟ ، أنا مسلمة وراضية".
وجم الجميع ، لقد عقدت المفاجأة ألسنتهم ، ولم يملكوا إلا أن يحملق بعضهم في وجه الآخر... ثم انتهت الأزمة ، ومرت العاصفة ، وعاد الأهل وقد أُسقط في أيديهم ؛ إذ رفضت ابنتهم ترك بيت الزوجية ، ولسان حالهم يقول: "أنت الخسرانة"!.
وتم الزواج الثاني ، ومرت ثلاث سنوات لم أَرَ نبيلة خلالها ، وبقدر ما كنتة تواقة لمشاهدتها وقد عدت من سفري - بقدر ما كنت أتهيب من زيارتها خشية أن تثير آلاماً وأحزاناً كامنة.
وكانت الغلبة للشوق نحو صديقة الطفولة والصبا ؛ لأرى بعيني أغرب حياة يمكن تصوُّرها في عصرنا ، إنها تعيد لأذهاننا صورة حياة سلفنا الصالح يوم كانت الهيمنة لشرع الله ، وهدْي رسوله ، فيشيع في بيوتنا الرضى والوداد ، فهذه نبيلة هي هي ، لم تفارق البسمة العذبة شفتيها ، ولا الكلمة الطيبة لسانها ، ويلوح
في عينيها رضى من نوع عجيب يحكي سعادتها الغامرة.
و"سامية" - التي عرفتها لأول مرة - لا تقل عنها رقة ودماثة ولطفاً ، وحتى في الجمال فهي أيضاً جميلة جذابة ، قد جللها نور المحبة والتسامح فزادها قرباً من القلب ، وبعد جلسة قصيرة تُعرّف نبيلة بجارتها (ضرتها) ثم تقول بزهو واعتزاز - وهى تربت على كتف سامية -: "ما رأيك ، ألست ممن يحسن

الاختيار؟ ، باختياري لسامية! لقد بحثت لعصام كثيراً فما وجدت خيراً منها ديناً وخلقاً ، والحمد لله لم يخب أملنا.
وإني إذ سمعت هذا الكلام لم أملك إلا الابتسام وغرقت في صمت مفعم بالإعجاب والإكبار.
وأثناء حديثها تناهى إلى سمعنا صوت بكاء طفل من غرفة مجاورة ، وبلهفة ذهبت إليه سامية لتعود حاملة طفلاً لا يتجاوز عمره بضعة أشهر ، وتقول: إنه "نبيل" أخو "سامي"!
ومما قلل من حيرتي أن نبيلة ألقمت ثديها لنبيل ؛ فعلمت أنه ابنها ، لكن مَن سامي هذا؟!
إنه الطفل المرح ذو النفس المشرقة ، يجر وراءه سيارة لعب صغيرة ليصل إلى حضن نبيلة فتجلسه مع طفلها ، فلم أتمالك أن قلت: الحمد لله ، ما عنده من خير لا ينفد ، بارك الله لك في أولادك وأسرتك يا أخت نبيلة.
وخرجت سامية لتعد الضيافة ، وهذا ما علمته من نبيلة ؛ إذ قالت: نحن هكذا ، كل واحدة منا تقوم بالواجب لضيوف جارتها ، حتى تتيح لها فرصة الاستمتاع مع صديقاتها. ثم اعتدلت في جلستها وكأنها تذكرت شيئاً مهماً فاتها وقالت: حقاً هذه أول مرة ترين فيها بيتناً بعد زواج سامية ، تعالى لأريك ترتيبنا الجديد للبيت.
ومشيت معها ، وكنت أود لو تعفيني من هذه المهمة ، لكني لم أشأ أن أرد طلبها ، سرت معها وأنا أغبطها على صبرها وأسائل نفسي: أهي راضية حقاً ، أم تمثل دور الرضا؟!
ولم ألحظ شيئاً غير عادي في ترتيب البيت ، إلى أن قالت: "هذه غرفتي ، وهذه غرفة سامية".
وشعرت بفضول غريب يدفعني دفعاً لأعرف رأيها بصراحة ووضوح ، ولم أكتفِ بما تبديه من الرضا والابتسام ، وتمنيت أن أسألها لولا أن بادرتني سائلة: ما رأيك في ترتيب بيتنا؟.
قلت لها: ممتاز ، ذوق سليم ، وإبداع مريح لكم جميعاً ، فلا بكاء طفل يؤرق الأب المتعب ، ولا ضجيج يزعج الزوجين ، وهنا تشجعت وسألتها مداعبة: وأنت ما رأيك في السكن في هذا البيت؟!
ففهمتها على التو ، وقالت ضاحكة: حتى أنتِ؟ ، إنه جنتنا وبهجتنا في دنيانا هذه ، ومنه إلى جنة الخلد - إن شاء الله - وتابعت كلامها: إن سامي ونبيل إخوة فيجب أن ينشأوا في جو المحبة الحقيقية ، وإلا كانوا - والعياذ بالله - أعداءً ألداء ، يملأون البيت غماً ومشاكل.
وتـأتـي سـامـية بالـضـيافة وهى تردد كلمات الترحاب ووجهها يتألق سروراً وسعادة وهي تقول: كم يستغرب الـنـاس زواجي من عصام، حتى أهلي لم يحتملوا أبداً سماع الموضوع، لا لعدم كفاءته، بل إنهم ينكرون أن أبدأ حياتي

بأن أكون زوجة ثانية ، فقلت لهم: وهل أنا أفضل من أمهات المؤمنين؟! ، أليست الزوجة الثانية زوجة معززة مكرمة؟!.
وتشارك نبيلة في الحديث: غريب أمر الناس، كيف يستقبلون التعدد كاستقبال المحرمات ، بل أسوأ؟! ، فقد يتساهل البعض في العلاقات المحرمة ، ويطلقون ألسنتهم في الحديث عن تعدد الزوجات ، إنها غيبة العمل الحق بتعاليم الشرع.
ولم أتمالك نفسي أن قلت:
الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وزادكما الله من فضله رضى وسعادة.

الفرقان.. يسكب الطُّمأنينة

د.مصطفى السيد

يحلو الإبحار ضد التيار
ضد الذين يرون الوقت عبثاً
والفكر اجترار
وانتظار ليوم بِكر لا يجئ
ينفقون الأعمار
وليوم ثامن لا يؤوب
حتى يملهم الانتظار

(2)

تجتاحني سيرة سفيان الثوري
كإعصار فيه نار
تقتلع الزبد جفاء
وتمسك ما ينفع الناس
فيمكث
عطاء مدرارْ
ويدهشني الإمام أحمد
بزهده وهدوئه
فيحرك بغداد
من دهليزه وتتلاشى
هيمنة السلطة
أمام
طرقات الفكر الجبار
لقد ملأوا المكان
ونحن كحلقة ملقاة

بأرض فلاة
وهكذا فالمسألة
ليست
مسألة نص غائب
بل معضلة شخصية
متداعية
تختزن في أعماقها الماء
والناس
يتساقطون حولها
ظماء

(3)

غاب الإنسان فصارت
الأرض يباباً عند (اليوت)
وغار الإيمان فصار الزمان
مفقوداً عند (بروست)
هذا ما تقوله:
قوافل المهاجرين
إلى فكر الغرب
والمهجرين إلى كفر
الشرق
إنهم يعودون
ولكن
يلِجون
من باب التصوف
(ويسربون) ولكن
من رتاج (1) القلب
بعد أن طحنتهم
هيمنة العقل
***
تصنم العقل وتوثّن
وصدأ الروح وتعفن
(الفرقان) وحده هو الذي
(يسكب) الطمأنينة في
الآبار المعطلة
والأرواح المهجرة

(4)

آه لهذا الإنسان
فلطالما
لمعت بروق المعرفة
بأني ((قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ))
ولكن طول العهد
بالعبودية
أبى عليه مفارقة
الواسطة البشرية

الهوامش:

1- رتاج: باب.

وسائل الغزو الفكري في دراسة التاريخ

محمد بن صامل السلمي

مقدمة :

قال في لسان العرب: "مادة غزا": غزا الشيء غزواً ، أراده وطلبه ، والغِزوة - بالكسر - ما غُزي وطلب، ومغزى الكلام مقصده، وعرفت ما يُغزى من هذا الكلام: أي ما يراد منه، والغزو: القصد.

وبـهـذا تـنـحـصـر مـعـاني هذه المادة: في الطلب والقصد والإرادة ومعرفة ما يراد ، والغزو الفكري - بهذا التركيب الإضافي -: مصطلح معاصر يعني البحث عن كيفية تأثر المسلمين بأفكار وخطط أعدائهم الـتـي تـضـاد الشريعة الإسلامية ، وتسعى للقضاء عليها ، ولتحلل المسلمين منها ذاتياً دون استخدام القوة المباشرة.

يقول الدكتور عبد الستار السعيد: "الـغـزو الفـكـري تعـبير دقيق بـارع يصور خطورة الآثار الفكرية التي يستهين بها كثير من الناس لأنها تمضي بـيـنـهـم فـي صمت ونعومة مع أنها حرب ضروس.. لا تضع أوزارها حتى تترك ضحاياها بين أسير أو قـتـيل أو مسيخ كحرب السلاح أو هي أشد فتكاً"(1). وذلك أن الغزو العسكري واحتلال الأرض يـثـيـر فـي الطرف المقابل الحمية والنخوة وروح المقاومة ورد العدوان ، في حين أن الغزو عن طريق الـفـكـر لا يـثـيـر شـيئاً من هذا عند كثير من الناس ؛ لأنه يتودد إلى النفس ، ويدخل إليها من عدة مداخل تناسبها: مـداخـل الشـبـهات من دعاوى التقدم والتطور ومسايرة ركب الحضارة والمدنية... الخ. أو مداخل الـشـهـوات مـن حـب الأمـوال والسلطـة والجاه وحب الظهور، وتحقـيـق الـرغـبـات الهـابـطـة مـن الجنس والشراب وغيرها من ألوان الفساد والانحراف الخلقي والسلوكي

وبذلك يسهل قياده، ويضمن تحوله واستمراره ذاتياً، من داخل نفسه، بل قد يصبح داعية لمبادئ العدو وأفكاره ، وهذه فتنة من أعظم الفتن ، وقد قال - سبحانه وتعالى -: ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وكُفْرٌ بِهِ والْمَسْجِدِ الحَرَامِ وإخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إنِ اسْتَطَاعُوا))[البقرة:217].
إن الصراع بين المسلمين والكفار دائم ومستمر ، وقد جرب عدونا سلاح القوة مراراً ، فما أجدى له نفعاً ، مما جعل قادتهم يفكرون في وسيلة أخرى وميدان آخر للصراع ، ولقد أدركوا أن السر في صلابة المسلمين وتفوقهم هو في إسلامهم ؛ ولذا حولوا ميدان الصراع من حرب المسلمين ذاتهم إلى حرب العقيدة الإسلامية ، وبهذا تغيرت ملامح المعركة ، فلم يعد ميدانها الرئيسي الأرض ولكنه الأدمغة والعقول ، ولم تعد وسيلتها السيف بل الفكر ، ولم تعد جيوشها الأساطيل والفرق العسكرية ولكنها المؤسسات والمناهج بالدرجة الأولى (2).
والذي يعنينا في هذا المقال هو البحث عن كيفية وقوع الغزو الفكري في علم التاريخ الإسلامي ، وكيف تأثرت دراسة تاريخنا بمناهج وخطط وأفكار أعدائنا؟.
وسائل الغزو الفكري في تشويه التاريخ:
لقد تعرض التاريخ الإسلامي لأكبر قدر من الغزو الفكري ، وركز الأعداء على تشويه تاريخ الأمة الإسلامية ، ذلك أن التاريخ - بالنسبة لأية أمة - هو مجال اعتزازها وموطن القدوة فيها. فإذا كان تاريخ الأمة حافلاً بالأمجاد - كما هو واقع تاريخ المسلمين - فإنه بلا شك سيكون باعثاً لهم على النهوض والتمسك بالمبادئ والآداب والقيم التي جعلت الأجداد يحرزون هذا المجد والفخار ، ويصلون إلى هذا المستوى الراقي في بناء الأمة والحضارة ، ويبحثون عن السر الذي رفعهم إلى هذا المستوى ، وأنه إيمانهم بالله وتمسكهم بدينهم وجهادهم في سبيل الله ومن ثم يسعون جاهدين لانتشال أنفسهم من الوضع المتردي الذي وصلوا إليه ، وأمامهم الصورة الجلية. والقدوة الممتازة في شخص رسولنا -صلى الله عليه وسلم- الذي أخرج الله به الأمة من الظلمات إلى النور ، ومن الشرك والأهواء وتحكم الطواغيت إلى التوحيد والعدل والأمن والطمأنينة ، ومن الفقر وضيق الحال والشتات إلى الغنى وسعة الدنيا والآخرة والاعتصام بحبل الله. وكذا أصحابه - رضي الله عنهم - الذين حملوا الراية وآزروه ونصروه ، وأيضاً بقية الأجيال من السلف الصالح من العلماء والزعماء والقادة والمصلحين والدعاة إلى الحق.
والنماذج الممتازة في التاريخ الصالحة للقدوة ليسوا أفراداً يمكن حصرهم ، ولكنهم أجيال وأجيال ، في مجالات الحياة كافة ، العسكرية والسياسية

والتربوية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية وهذا لا يوجد في تاريخ أية أمة أخرى لما لهذه الأمة من خاصية الاستمساك بالمنهج الرباني.
والتاريخ الإسلامي هو الذي يسجل هذه الصور السامقة ويوضح دور الأمة وأثرها وفضلها على البشرية ، ولذلك لا نستغرب إذا ركز الأعداء في غزوهم الفكري على التاريخ الإسلامي حتى ناله كثير من التشويه والتحريف والتجهيل والتزييف والتفسير الخاطئ لأحداثه ومزاحمته بتواريخ الأمم الجاهلية حتى يبدو حلقة صغيرة أو كماً مهملاً في تاريخ البشرية.
ولقد قام على تشويه التاريخ الإسلامي في العصر الحديث جيش بل جيوش من الاستشراق والتنصير ودوائر البحث ومكاتب المخابرات في الدول الغربية ، واستطاعوا أن يجندوا مجموعة من ضعاف النفوس والمغرورين والجهلة وضحايا الغزو الفكري في العالم الإسلامي لمساعدتهم ونشر أفكارهم بين المسلمين.
ونذكر فيما يلي بعض الوسائل التي استخدموها:

1- اختلاق الأخبار وإبراز المثالب:

وهذه أولى الوسائل التي استخدمها المستشرقون والمنصرون لتشويه صورة الحياة الإسلامية، وعقيدة المسلمين وسيرة رسولهم ، -صلى الله عليه وسلم- حتى ينفّروا أبناء جلدتهم من "الدين الإسلامي ، ويصورون المسلمين بأنهم وحوش وسفاكو دماء وأنهم يعيشون حياة تخلف وهمجية ، ويضعون ق-صلى الله عليه وسلم-اً وحكايات تؤيد ما يقولون ، كما أنهم يسعون إلى تسقط الأخطاء وجمع المثالب وإبرازها على أنها الصورة المعبرة عن تاريخ المسلمين ، وهذه الوسيلة كانت غالبة على الكتابات الأولى للمستشرقين الذين كتبوا عن الدين الإسلامي وعلومه وسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وتاريخ المسلمين ، سواء كانت مؤلفات أو مقالات في المجلات التي أنشأها المستشرقون في مختلفي الدول الأوربية (هولندا - روسيا - ألمانيا - بريطانيا - فرنسا - أمريكا - إيطاليا) أو في دوائر المعارف العامة.
وقـد قـل اسـتـخـدام هـذه الـوسـيلة في الكتابات المؤخرة لا إنصافاً للحقيقة وإنما تغييراً في الخطة لأن الوسيلة الأولى لم تعد صالحة ولا مقبولة حتى في المجتمعات الغربية.
ومَن اطلع على كتب القوم وما تكتبه المجلات الصادرة عنهم ودوائر المعارف يجد ذلك واضحاً ، وهذا مثل واحد من أخف الأمثلة (كارل بروكلمان) - المستشرق الألماني الذي يعتبر حجة عندهم بل عند بعض الباحثين المسلمين ، ويعتبرونه من المعتدلين وقد يبالغ البعض فيعتبره من المنصفين في كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية" - ولكن إذا قرأت في هذا الكتاب رأيت العجب العجاب ورأيت التشويه ، بل رأيت الجهل الثقيل ورأيت الكذب الصريح. يقول في (ص31): "الكعبة بناء ذو أربع زوايا يحتضن في إحداها الحجر الأسود ولعله

أقدم وثن (3) عُبد في تلك الديار ، وكانت الكعبة تضم تمثال الإله القمري هُبَل ، بالإضافة إلى الآلهة الثلاثة المعبودة (اللات والعُزى ومناة)".
وقوله هذا إما جهل حقيقي وإما كذب وتزوير ولا أظنه يجهل موقع العزى واللات ومناة وهو يبحث في كتب الجغرافيا والبلدانيات الإسلامية التي تحدد مواقع تلك الأصنام.
وفي (ص85) وهو يتحدث عن مسيلمة وسجاح يقول -: "ففيما كان محمد لايزال على قيد الحياة ظهر في تلك البلاد رجل اسمه (مسلمة) وقد دعاه المسلمون مسيلمة من باب التصغير الذي يقصد به التحقير ، وادعى النبوة".
وهذه فرية ما سبقه إليها أحد ولا ضير أن ينتصر للكذاب المتنبئ ؛ لأن الكفر ملة واحدة ، ومعلوم عناية العرب بعلم الأنساب وبالأسماء وكل ما لدينا من كتب النسب والتراجم لا تذكره إلا باسم مسيلمة فمن أين جاء هذا الأفاك بهذا الاسم ؛ وقد جاء خبره واسمه في صحيح البخاري (4) من قول - الذي لا ينطق عن الهوى -صلى الله عليه وسلم- - فيما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:
"بينما أنا نائم رأيت في يديَّ سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحي إليَّ في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فأوَّلتهما كذابين يخرجان بعدي أحدهما العنسي والآخر مسيلمة".
كما أن مسيلمة قد كتب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- كتاباً يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله (5) فهو أعلم باسمه من هذا المستشرق ، ثم إن الاسم - سواء كان مكبراً أو مصغراً - لا يحكي الحقيقة ولا يحكم على الشخص من خلاله ، وإنما الحقائق والأحكام من المواقف والإيمان أو الكفر.
والحقيقة أن ما كتبه عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتشريعات الإسلام وتاريخ الخلفاء الراشدين يمثل قمة السوء والحقد ، فقد رمى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكل نقيصة ، وقال عن الوحي إنه حالة من الصرع والهلوسة ، وقال عن وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- إنه بسبب الحياة الزوجية الواسعة.
وكل الشعائر الإسلامية مقتبسة - في نظره - من اليهود أو النصارى أو الهنود أو الفرس ، ويدافع عن اليهود وينتصر لهم ويرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ظلمهم ، بل ينكر أصل النبوة فيقول: "نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة"!(6). ويقول في نفس الصفحة: "أعلن ما (ظن) أنه قد سمعه كوحي من عند الله" ، ويقول عن عائشة - رضي الله عنها -: "أرملة النبي الشابة المحبة للفتنة" (7) ، ويتبنى آراء الشيعة في القرآن وأنه محرف (8)... إلى غير ذلك من الترهات المبنية على الكذب و الافتراء.

وإن من وسائلهم أن ينقل بعضهم عن بعض ويرددون الفكرة الواحدة في مجموعة من الكتب والمقالات حتى إذا كثر القول بها ظُن أنها حقيقة لا تقبل النقاش.

* يتبع *

الهوامش:

1- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام،6.
2 - سفر الحوالي: العلمانية ، 535.
3- كرر وصف الحجر الأسود بأنه طقس وثني في ص61،76.
4- كتاب المغازي ، باب وفد بني حنيفة ، 8/89.
5- انظر: البداية والنهاية ، 5/51 ، وقال: رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثني سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه وهذا إسناد جيد حسن.
6- تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ، 36.
7- المصدر السابق ، 111.
8- المصدر السابق ،112.

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

هل يعود ظاهر شاه لحكم أفغانستان؟

عبد الرحمن نموس

وصلنا هذا التقرير من بـشـاور يلـقـي فـيـه كـاتبه نظرة على وضع الجهاد الأفغاني وبعض الأحداث التي تتفاعل على الساحة هناك ونحـن إذ نـشـكـر لـلأخ هذا الجهد الطيب كان بودنا لو أنه توسع في بسط وجهة نظر قادة المجاهدين في هذه المشكلة.

- التحرير -

برزت للوجود من جديد احتمالات عودة ظاهر شاه وبقوة واضحة أكثر من أي وقت مضى، فقبل ثلاثة أسابيع تكلم المهندس حكمت يار عن مؤامرة ثلاثية الأطــراف تهـدف لـعـودة ظاهر شاه ، والأطراف الثلاثة هم:

1 - ظاهر شاه نفسه.
2- بعض المنتسبين للجهاد "جماعة جيلاني".
3- النظام الحاكم في كابل ممثلاً بمحافظ قندهار الجنرال "عبد الحق علومي".

ولقد سألت المهندس حكمت يار عن تفاصيل الخطة فقال لي: تبدأ الخطة بأن يهاجم هؤلاء الـمنتسبون للجهاد مطار قندهار ولا يبدي المطار إلا مقاومة ضعيفة بحيث يسقط في أيديهم وهـو صالح للاستعمال. ويستمر هؤلاء في

التقدم نحو مدينة قندهار بالاتفاق مع علومي الذي ما يلـبـث أن يعلـن استسلامه لهؤلاء ، وتكون هنالك في هذه الأثناء أيدٍ خفية توزع الأموال من أجل تحريك الـنـاس لـلـقـيـام بمظاهرات تطالب بعودة ظاهر شاه. وفعلاً تقوم المظاهرات وتبدأ المرحلة الثانية بالتمهيد لاستـقـبـال ظـاهـر شـاه فـي مطار قندهار بشكل يشبه مجيء الخميني إلى إيران.

وعلى إثر ذلك تـوجـــه حكـمـتـيـار عن طريق مدينة "كويتا" الباكستانية إلى قندهار ليدير العمليات الجهادية بنفسه ويبذل جـهـده فـي وأد الـمؤامرة الخبيثة ، وبقي هناك حوالي أسبوعين يحرض المجاهدين على الجهاد وينبههم عـلـى خـطــورة المؤامرة المذكورة ، كما وجه خطاباً إلى المدنيين يطلب منهم فيه إخلاء المدينة حتى يتمـكـن الـمـجاهــدون من شن هجومهم الشامل دون المزيد من سفك الدماء.

ولكن بالرغم من كل ذلك ما تزال احتمالات عودة ظاهر شاه قائمة ولا تزال كل الأطراف تتحرك مؤيدة لهذه العودة ، وقد وصف حكمت يار الوضع أثناء عودته من قندهار - بأنه خطر ؛ حيث وقفت عدة قوى في وجه المجاهدين - سواء بشكل مباشر أو غير مباشر - لتشكل عوامل مساعدة في عودة ظاهر شاه ، وتبدو هذه العوامل في شق منها داخلية ، وخارجية في الشق الآخر.

أولاً: العوامل الداخلية:

1- إلى الآن لم يتفق قادة الائتلاف السباعي على مستقبل البلاد وعلى مَن يحكم البلاد ، فبينما أغلب القادة يرون أنهم خضَّبوا تراب أفغانستان بدماء أكثر من مليون من أبناء شعبها لإعادة الحكم الإسلامي فيها (حكمت يار ، سياف ، خالص ، رباني) يرى قسم آخر أن هذا الهدف لا يتعارض مع عودة ظاهر شاه الرجل المناسب الذي يمثل الاعتدال عندهم ؛ فهو رجل مسلم أفغاني وله خبرة سياسية طويلة في الحكم ، وقد عاشت البلاد في ظل حكمه فترة آمنة ورغدة (محمد نبي محمدي ، مجددي) ويميل بعضهم إلى استشارة ظاهر شاه في كل حركة وسكنة ، وقد ساعد هؤلاء في إنشاء بيت في مدينة "كويتا" الباكستانية القريبة من جنوب أفغانستان ، ومنطقة قندهار سموه (بيت ظاهر شاه) ، وقد بدأ هذا البيت نشاطه كمركز إعلامي للملك ، فمنه توزَّع صور الملك بالزي العسكري وفيه تُصنع أعلام أفغانستان التي كان معمولاً بها في العهد الملكي (جيلاني).

وقد تحدث السائق عبد الحي التابع لجماعة جيلاني إلى مراسل A.M.R.C. عن هذا البيت قائلاً :"لقد قمنا بتوزيع منشورات من هنا تؤيد ظاهر شاه" ، ويضيف المراسل: لقد حصلت على واحد من هذه المنشورات كُتب بالفارسية وفيه هجوم على قادة المقاومة ، كما هاجمت منشورات أخرى من نفس المصدر حكومة المجاهدين المؤقتة ، إضافة إلى ذلك فقد نشط أتباع ظاهر شاه بإغراء بعض المهاجرين بالعودة إلى مناطقهم الأصلية في قندهار ، وقد رجع حوالي (

1000) عائلة - حسب نفس المصدر - إلى قندهار ، وأكد هذا الخبر أيضاً مصدر مسؤول في الاتحاد الإسلامي (مكتب كويتا) ، وذكر مصدر الاتحاد أن المجاهدين لا يهاجمون مناطق الدولة التي يستقر هؤلاء العائدون بالقرب منها ، وذكر تقرير إعلامي - يصدر عن هيئات دبلوماسية غربية في إسلام آباد - أن ما بين مائة إلى مائتي عائلة أفغانية تقفل عائدة من مخيمات الهجرة في بلوشستان إلى كل من قندهار وهلمند ونيمروز في الجنوب الأفغاني.

2- بعض قادة المجاهدين فوجئوا بنتائج الانتخابات التي حصلت ضمن مجلس الشورى بمدينة الحجاج في إسلام آباد من أجل اختيار حكومة المجاهدين المؤقتة ؛ إذ جاءت الأحزاب الأكبر حجماً والأكثر قوة في مراتب متأخرة بالترتيب بنتيجة هذه الانتخابات ؛ الأمر الذي جعل هذه الأحزاب تعدل رأيها حول موضوع إجراء الانتخابات العامة وتنتقل من موقف المعارض لها إلى موقف المطالب بها وبإلحاح ، وبدأت مثل هذه الأحزاب بالسعي مسبقاً لكسب تأييد شعبي وسياسي يضمن لها النجاح مستقبلاً ؛ مما اضطرها إلى إعطاء وعود جعلت جهات أخرى تطمع في المزيد من الامتيازات أو المكاسب من الحكومة.

3- لقد اعتمد التحالف الثماني الشيعي المقيم في إيران على المكاسب المادية فقط في تقديره للمواقف وتقييمه للمستقبل السياسي للبلاد ، فقد رفض هذا الائتلاف مشاركة حكومة المجاهدين المؤقتة في أي وزارة كما رفض الاشتراك في مجلس الشورى الذي اختار هذه الحكومة. وعلق أي تقارب بينه وبين ائتلاف الأحزاب السبعة والحكومة المؤقتة على تطبيق ما وعد به مجددي بصفة شخصية لهذا الائتلاف أثناء زيارته لطهران في أواخر يناير وأوائل فبراير عام 1989م. وكان وعد مجددي بإعطاء الائتلاف 100 مقعد في مجلس الشورى ، وسبع وزارات - وهي نسبة تساوي حوالي 20% من كامل نصاب مجلس الشورى ، و25% من كامل نصاب الحكومة. علماً أن نسبة الشيعة إلى مجموع سكان أفغانستان لا تتعدى 8% ورغم تعدد المحاولات وتكرار جنسيات المفاوضات بين ممثلين عن الائتلافين إلى أن أي تقدم لم يحصل حيث لم يرضَ الائتلاف الثماني بكل المقترحات التي عرضت عليه. وأصر على حقه بمائة مقعد وسبع وزارات ، ثلاث منها وزارات مهمة ، في هذه الأثناء كانت هنالك محادثات سرية تدور بين ممثلين عن التحالف الثماني وبين سلطات نظام كابل وقد وردت تقارير تفيد أن نجيب الله رئيس نظام كابل وعد الشيعة بإعطائهم الحكم الذاتي " في مناطقهم وأهمها منطقة "هزاراجات" كما وعد بتعيين كريم خليلي الناطق الرسمي باسم الائتلاف الشيعي في حينه رئيسا للوزراء ، وعندما سئل حكمتيار عن المفاوضات بين الشيعة والنظام أجاب: وصلتنا تقارير بهذا الخصوص ولكننا نفضل الانتظار.

كما أن عبد الحق (أحد القادة العسكريين التابع لحزب يونس خالص في منطقة كابل) أصدر بيانا أكد فيه حصول مثل هذه المفاوضات بين نظام كابل وممثلين عن الشيعة برئاسة كريم خليلي.
ولما لم يحقق هذا التحالف ما يصبو إليه من مكاسب رفض الاعتراف بحكومة المجاهدين واعتبرها لا تمثل المجاهدين كافة وبالتالي لا يمكن اعتبارها حكومة شرعية من وجهة نظره.
4- بعض القادة في الداخل لهم تحفظات حول هذه الحكومة ، فقد أعلن أحمد شاه مسعود (قائد قوات الجمعية الإسلامية التابعة للأستاذ رباني في بانشير والشمال) للتلفزيون البريطاني - أن الأسس التي قامت عليها هذه الحكومة لا تمثل العدل ؛ إذ كيف تتساوى الأحزاب الصغيرة والأحزاب الكبيرة بنفس عدد الأصوات ، حيث تم تعيين ستين عضواً عن كل حزب من الأحزاب السبعة ، ويعلق أحمد شاه مسعود: ولكن رغم ذلك سنطيع هذه الحكومة ونساعدها ريثما تنتهي مدتها وتبدأ الانتخابات العامة لاختيار حكومة أفغانستان.
كما سمعت من بعض المصادر المسئولة هنا أن بعض القادة الصغار في الجبهات بدأوا يفكرون بترك أحزابهم والانضمام للأحزاب المؤيدة لعودة ظاهر شاه ، وفي الغالب أن اثنين من هؤلاء نفذوا ما فكروا به.
ثانياً: العوامل الخارجية:
بالإضافة إلى العوامل الداخلية التي ذكرت هنالك عوامل خارجية تساعد على عودة ظاهر شاه ، ومنها:

1- ظاهر شاه نفسه:

حيث يرى هو ومَن معه أن حكومة المجاهدين الحالية لا تمثل قطاعات الشعب كافة ، ولم يتم تأسيسها على قاعدة واسعة ، ويدعو إلى ضرورة عقد "لوياجركا" في البلاد لاختيار حكومة المستقبل وتقرير مصير البلاد ، وهو موقف مضاد لموقف قادة المجاهدين الذين يرون أن اللوياجركا - المجلس القومي الكبير - تقليد بالٍ مضى وقته وانتهى عهده أمام النهضة الثقافية الإسلامية والحضارية.
كما دعا أحد كبار مؤيدي ظاهر شاه - وهو المدعو دكتور يوسف (رئيس الوزراء في عهد ظاهر شاه) في موضوع كتبه لإذاعة لندن باللغة الفارسية ضمن برنامج متسلسل تعده الإذاعة عن مستقبل أفغانستان - إلى عقد هذه اللوياجركا كحل أمثل للقضية الأفغانية ، ولوضع حد لما وصفه بالاقتتال بين الأهل بعد انسحاب القوات الروسية.
ورغم عدم أهمية موقف ظاهر شاه ومَن معه إذ لم يشاركوا في يوم من الأيام في هذا الجهاد حتى يكون لهم القسط الأوفى من قطف ثماره - إلا أن الجهات الدولية تعول على هذا الموقف وترى ضرورة اعترافه بالحكومة حتى تكون محل اعترافهم هم.

فقد أوضحت باكستان ضرورة إشراك الائتلاف الثماني الشيعي وظاهر شاه في حكومة المجاهدين حتى تكون محل اعترافها. وهذا الموقف ينسحب على دول أخرى في المنطقة.

2- موقف حكومة نجيب:

ترى إدارة النظام الحاكم في كابل أنها آيلة إلى السقوط لا محالة بغض النظر عن طبيعة وماهية النظام المستقبلي القادم ؛ لذا فهي تسعى إلى أن يكون لها نصيب في هذه الحكومة المستقبلية ، وبما أن المجاهدين قد أعلنوا رفضهم وبشكل قاطع لمشاركة الشيوعيين في الحكم - فكان لابد لهؤلاء أن يسعوا لتسليم السلطة إلى أي قادم يضمن لهم المشاركة ، وهذا الأمر متحقق بقدوم ظاهر شاه الذي لا يرى مانعاً من تشكيل حكومة واسعة تشارك فيها كل الأنشطة السياسية في البلاد ؛ لذا أعلن نجيب الله - في افتتاحه جلسة اللوياجركا ، التي انعقدت خلال يومي 20،21/5/1989م - أن حكومته تبذل ما تستطيع من جهد لعودة ظاهر شاه إلى أفغانستان ووصفه بأنه رجل المرحلة ، وأشار نجيب أيضاً إلى أنه لابد لحزب الشعب الديمقراطي من أن يشارك في أي حكم مستقبلي.

وكرر هذه الإشارة في معرض رده على بيان بوش وبوتو بعد زيارة الأخيرة لأمريكا والذي طالبا فيه بتنحي حكومة نجيب عن الحكم.

وتأكيداً لمساعي نظام كابل في العمل على عودة ظاهر شاه تم تكليف الجنرال (عبد الحق علومي) محافظ قندهار بلعب دور مهم في هذه المسألة ، وبدأ الأخير فعلاً تحركه في هذا المجال ، فقد كان دوره في المؤامرة المذكورة - كما ذكرنا -أن ينضم بسرعة للقوات المنتسبة إلى المجاهدين ويدفع زبانيته لتحريك الناس بالتظاهر مطالبة بعودة ظاهر شاه ، كما بدأ علومي يوظف مخابراته بدفع الأموال للمهاجرين واستقدامهم إلى قندهار والمحافظات الجنوبية القريبة منها ليكونوا درعاً من أي هجمات متوقعة لإفشال المؤامرة ، وأداة في التظاهر لعودة الملك المخلوع ، وعمل نوعاً من المصالحة عندما سمح لبعض أدعياء الجهاد بالنزول إلى المدينة وزيارة من يشاءون والتحرك بمنتهى الحرية شريطة عدم حمل السلاح ، ومازال علومي وأتباعه يدرسون هذه المؤامرة خصوصاً في مجال استقدام أكبر عدد من المهاجرين إلى داخل أفغانستان.

3- موقف باكستان:

بدأت باكستان تميل - منذ بداية عهدها الجديد "ما بعد ضياء الحق" - نحو حل سياسي يرضي أكثر من طرف ، وقد تجلى هذا في العديد من النقاط البارزة في السياسة الباكستانية تجاه القضية الأفغانية.

وأولى هذه النقاط تخفيف الدعم عن المجاهدين بنسبة كبيرة ، وقد ذكر بعض القادة أن الدعم الحالي يساوي خُمس الدعم الذي كان المجاهدون يتلقونه

سابقاً ، وذكر قسم آخر له علاقات أقوى مع الباكستان أن الدعم انخفض إلى الثلث.
كما عمدت الحكومة الجديدة إلى إقالة حميد غول - رئيس المخابرات الباكستانية - الذي يمثل التيار الأكثر تأييداً ودعماً للمجاهدين ، ووافقت على وجود نقاط مراقبة تابعة لهيئة الأمم المتحدة على حدودها مع أفغانستان بينما لم تطالب بمثل هذه النقاط على الحدود الأفغانية الروسية!
وترى الإدارة الباكستانية نفس رؤية الغرب بأن حكومة المجاهدين الحالية لا تمثل كل فئات الشعب ، ولابد أن تكون الحكومة مبنية على قاعدة واسعة ، وقد ذكر غلام إسحق ضرورة إشراك الائتلاف الثماني الشيعي وضرورة إشراك المستقلين في أوربا "ظاهر شاه" - حتى يمكن الاعتراف بهذه الحكومة.
كما توقف وزير الخارجية الباكستانية صاحب زاده يعقوب خان في روما - أثناء رحلته إلى أمريكا - وقابل ظاهر شاه وناقش معه بعض المسائل المتعلقة بالقضية الأفغانية ، كما قابل قبيل سفره بعض الزعماء الأفغان المؤيدين لعودة ظاهر شاه في مدينة "كويتا" الباكستانية.
وأخيراً صرحت بي نظير بوتو في أمريكا أنها تريد تسوية سياسية في أفغانستان حتى يستطيع 3,6 مليون مهاجر أفغاني في باكستان أن يعودوا إلى بلادهم ، ونقلت مجلة "نيوز ويك" - الصادرة بتاريخ 4/6 - عن بوتو قولها: أنها لا ترغب في حكومة أفغانية يتحكم فيها الأصوليون ، ودعت إلى مفاوضات لإيجاد حكومة موسعة ، ونقلت نفس المجلة عن صاحب زاده يعقوب خان - قوله: إن الحل العسكري غير مرغوب فيه، وإن على الأمم المتحدة أن تساعد في إنجاز انتقال سلمي للسلطة.

4- الموقف الأمريكي:

لم تكن سياسة أمريكا في يوم من الأيام لصالح قضية إسلامية - مهما صغرت أو كبرت - حتى تقف لصالح الجهاد الأفغاني الذي يمكن أن يؤدي إلى قيام دولة إسلامية - بإذن الله - لكن هذه السياسة هي اليوم أشد وضوحاً في الوقوف ضد الخيار الإسلامي ، فموظفو الإدارة الأمريكية يرون وجوب تعديل سياستهم تجاه القضية الأفغانية وانتهاج خطة جديدة تتمحور حول كيفية إيصال نظام غربي يسمونه "بالاعتدال" إلى السلطة وبطريق سياسي لا عسكري (نيوز ويك 4/6).
كما أن الرئيس الأمريكي - الذي أعلن عن اتفاقه في وجهات النظر مع السياسة الباكستانية تجاه حل سياسي للقضية الأفغانية - قال في مؤتمره الصحفي الذي عقده مع بي نظير برتو: إن قضية أفغانستان لم تنتهِ بعد ، ولقد تحدثنا أنا ورئيسة الوزراء الباكستانية عن طرق وأساليب تشكيل برلمان أفغاني غير منحاز لإحياء الأمن وتغيير الحكومة غير الشرعية في أفغانستان" ،

كما أكد همايون خان وكيل الخارجية الباكستانية وحدة المواقف الأمريكية الباكستانية عندما أجرى راديو صوت أمريكا بالفارسية حواراً معه فقال: إن الولايات المتحدة والباكستان تحملان نفس المواقف منذ البداية بخصوص مشكلة أفغانستان ، وتتفقان على حل سياسي لها...
إضافة إلى ذلك فإن موقف الإعلام الأمريكي يعكس حقيقة الوضع في واشنطن ؛ فصحيفة "نيو يورك تايمز" - الصادرة بتاريخ 22/5/1989 ترى أن مواصلة الدعم للمجاهدين عبارة عن مجازفة كبيرة خصوصاً بعد الانسحاب السوفييتي ، وترى الصحيفة أن الأحزاب الأقوى التي يقودها مَن وصفتهم بالأصوليين يملكون أهدافاً على النقيض تماماً من أهداف أمريكا ، كما دعت "نيو زويك" إلى وقف الدعم عمن وصفتهم بالثوار ؛ لأن الدعم الأمريكي حقق - حسب الصحيفة - الانتصار بجعْل - القوات الروسية تنسحب من أفغانستان ، أما الآن فإن هذا الدعم لا مبرر له وقد ينقلب ضد مصلحة أمريكا!

5- موقف هيئة الأمم المتحدة:

بدأت هيئة الأمم المتحدة بزيادة نشاطها من جديد فيما يخص القضية الأفغانية ، فبعد فشل كوردوفيز في حل القضية ووضوح عدائه للمجاهدين هدأت الأمور فترة ثم عادت لتبدو بشكل اقتراحات عجيبة من قبل هيئة الأمم المتحدة.
فبعض أركان هذه الهيئة يدعو إلى عقد مؤتمر دولي لبحث مستقبل أفغانستان ، ولقد كان الأَوْلى أن تتم الدعوة لمثل هذا المؤتمر أيام تواجد القوات الروسية في أفغانستان لبحث مسألة احتلال هذه القوات لأرض الغير بشكل غير شرعي ، أما اليوم فالمسألة غدت مسألة داخلية بين حكومة غير شرعية جاءت على ظهر الدبابة الروسية لتحكم البلد ، وبين مجاهدين معهم الملايين من الشعب المهاجر من جراء القمع الوحشي الذي يمارسه العملاء في داخل البلاد ، وهؤلاء المجاهدون يطالبون - وبحق - بتنحي الحكومة الشيوعية وقيام حكومة إسلامية تفي بمتطلبات شعب مسلم هاجر من أجل دينه ومعتقده.
كما حاول ديكويلار ومن خلفه صدر الدين آغا خان مبعوث هيئة الأمم المتحدة لشؤون المهاجرين سحب ورقة المهاجرين من أيدي المجاهدين باقتراح إنشاء أماكن محايدة في أفغانستان يتم ترحيل المهاجرين إليها ، وتشرف هيئة الأمم المتحدة على أمورهم المعيشية فيها. وقد رفض المجاهدون هذا الاقتراح الذي أيدته باكستان لأنه لا يمثل حلاً حقيقياً لمشكلة خمسة ملايين وثمانمائة ألف مهاجر يعيشون في باكستان وإيران ، ولأن المهاجرين لا يأمنون غدر الحكومة بقصف هؤلاء المهاجرين.
وأمام هذه العوامل فإنه من الواضح أن الأعداء يتكالبون على هذا الجهاد من كل حدب وصوب يريدون له أن يكون قتالاً ضد روسيا ، ويريدون له أن يكون حرباً وطنية لطرد محتل ثم لطرد عملاء هذا المحتل ، ويريدون له أن يكون

كل شيء إلا أن يكون جهاداً إسلامياً ضد إحدى أكبر قوى الطاغوت في الأرض وعمل على رفع الراية الإسلامية وحرص عليها بكل إمكاناته.
إن استمرار الجهاد هو الذي يحبط هذه المؤامرات والهدف الأول والأخير هو مرضاة الله - سبحانه - على كل الأحوال فإذا أخلصت النيات وصدقنا التوجه وتسلحنا بمزيد من الصبر وتلاحم الصفوف فإن الله - سبحانه وتعالى - ((ولينصرن الله من ينصره)) والحمد لله رب العالمين.

مسلمو كوسوفو
في مواجهة الاضطهاد الصربي

حسن علي أحمد

يشكل الصرب أكبر مجموعة عرقية في يوغسلافيا والتي تتكون من أكثر من عشر قوميات ، عانت يوغسلافيا ولا تزال - بسبب الاختلاف بينها - كثيراً من الويلات والقلاقل.
وأحداث مقاطعة كوسوفو خلال الشهور الماضية ليست إلا حلقة في تلك السلسلة الطويلة من الصراعات التي نشأت بين الصرب القوميين والمسلمين منذ قيام دولة يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الأولى ، غير أنها تفاقمت واشتدت بعد وفاة تيتو عام 1980م ، وكان العامل الأول والرئيس في الحفاظ على وحدة يوغسلافيا رغم كل الفروق بين الجمهوريات الست في القومية وفي فهم وتطبيق الاشتراكية.
ويتكون الاتحاد الفيدرالي في يوغسلافيا من ست جمهوريات ومنطقتين هما: مقاطعة كوسوفو ،ومقاطعة فويفودينا اللتان تتبعان جمهورية صربيا إدارياً ولكنهما تتمتعان بالحكم المحلي الذي زادت قوته بعد تعديل الدستور عام 1974 م والذي بمقتضاه أصبحت مقاطعة كوسوفو - عملياً - كأنها جمهورية مستقلة.
بروز القومية الصربية:
لكن الصرب الذين يطمعون في السيطرة على كل يوغسلافيا ، وإعادة مملكتهم القديمة (1) أرادوا اتخاذ خطوات عملية في تحقيق ذلك بعد ثمانية أعوام من الدعوة الصربية العلنية إلى القومية الصربية وتفوقها العرقي ، وكانت البداية في مقاطعة فويفودينا حيث تمكنوا (وهم فيها أغلبية) بمظاهرة كبيرة شارك فيها أكثر من مائة ألف صربي - من إسقاط جميع أعضاء المكتب السياسي الحاكم في المقاطعة ، ووضع صرب قوميين بدلاً منهم.
أما في كوسوفو - ذات الأغلبية المسلمة (يشكلون حوالي 90% من عدد السكان وهم من أصل ألباني) والذين أثبتوا أنهم لن يتنازلوا عن حقهم وأنهم

سيضحون في سبيله بأموالهم في مظاهرات عام 1981 م والتي راح ضحيتها أكثر من 200 مسلم - فإن الحال قد اختلف كثيراً.
وتقول مجلة "تايم" - في عددها الصادر يوم 19 من سبتمبر عام 1988م -:"اجتمع أكثر من سبعين ألف من الصرب في سميدريفر (بالقرب من بلغراد) في مظاهرة كبيرة للضغط على الحكومة المركزية ومطالبتها باتخاذ إجراءات فعلية وضم المنطقة"!.
هذا ، ويعمل الإعلام الصربي على اختلاق الأعذار والأسباب لتهيئة الرأي العام اليوغسلافي لقبول هذا الاحتلال للمقاطعة ، فتنقل المجلة في نفس العدد - عن راديو مير سمليانتش الكاتب الصربي المعروف - اتهامه لسكان كوسوفو بالاعتداء على نساء وأطفال الصرب في المقاطعة ، وتمضي المجلة قائلة: "إن المسؤولين في كوسوفو نفوا أن يكون هذا قد حدث ، وأن غير الصرب في الجمهوريات الخمس الأخرى يتفقون على أن هذه الأخبار من الدعاية الصربية المغرضة".
وفي شهر سبتمبر عام 1988م رفضت قيادة الجمهورية الصربية - برئاسة سلوبودان ميلوشفتش -طلباً من الحكومة المركزية الفيدرالية بإيقاف المظاهرات والاحتجاجات ، ثم أعلنت عن إرسال قوة من الشرطة الصربية إلى العاصمة برشتينا لمساعدة القوات الحكومية في الحفاظ على أرواح وممتلكات الصرب أمام اعتداءات المسلمين عليهم كما تدعي.
ونقلت مجلة "نيوز ويك" - 16 من أكتوبر عام 1988 - تعليقاً على هذه الأحداث لمدير إذاعة جمهورية سلوفينيا المرئية يقول فيه: "لا أحد يقولها بصوت عالٍ ، ولكن الجميع قلق ويخشى أن تقود الأزمة الحالية لحرب أهلية".
الاستيلاء على كوسوفو:
وفى وسط الحملة الإعلامية العارمة التي تؤكد على حق الصرب القديم في مقاطعة كوسوفو ، وعلى أن المسلمين فيها قوميون متعصبون يسعون للانضمام إلى ألبانيا - عدوة يوغسلافيا التقليدية - وعلى أنه لابد للصرب من الدفاع عن مواطنيهم والحفاظ على وحدة البلاد ، وأن ذلك لن يتأتى إلا بحرمان المقاطعة من الحكم الذاتي ، وإلحاقها نهائياً بالجمهورية الصربية - اتخذت السلطات الصربية في بلغراد المزيد من الإجراءات العملية للاستيلاء على كوسوفو ، فأزالت رئيس الحزب الشيوعي عظيم فيلاسي في 27 من نوفمبر عام 1988 بعد أن اتهمته بالتعاون مع الانفصاليين ، وجعلت ثلاثة من أكبر الموالين لها في قيادة الحزب بدلاً عنه ، وبرغم أن قوات الشرطة تمكنت من إيقاف عشرات الآلاف من المتظاهرين ، وفك الاعتصام الذي قام به بضعة آلاف من عمال المناجم في مدينة "تريبكا" في 21 من فبراير الماضي ، وساد الهدوء المقاطعة لبعض الوقت - إلا أن الموقف قد انفجر مرة أخرى بعد أن تمكن الصرب بقيادة ميلوشفتش من إقناع الحكومة الفيدرالية

بضم المقاطعة لهم وأعلن ذلك في يوم 28 من مارس ، ولا تزال المقاطعة - بعد ثلاثة أشهر - تموج بموجات من الاحتجاج وعدم الرضا ، في حين تصاعدت إجراءات القمع الحكومي بتدخل الجيش وإعلان حالة الطوارئ وحظر التجول الذي لم يتوقف حتى الآن.

وتفيد التقارير التي نقلتها وكالات الأنباء العالمية أن عدد القتلى قد جاوز (150) قتيلاً ، والمعتقلين بضعة آلاف ، في حين تقوم أجهزة الأمن الحكومية ومعظمها من الصرب بحملات تفتيش واسعة للمنازل لإرهاب الأهالي وزرع مزيد من الرعب.

أما في جمهورية صربيا فتجري الآن استعدادات هائلة للاحتفال بالذكرى المئوية السادسة لمعركة كوسوفو الشهيرة عام 1389م (2) ويتوقع أن يشارك أكثر من مليون صربي (عددهم الإجمالي حوالي 9 ملايين) في هذا الاحتفال ، وحول هذا الحدث نقلت وكالات الأنباء العالمية تصريحاً لترايكو فيتش زعيم الحزب الشيوعي هناك يقول فيه: "مع أن هذه المناسبة تحمل في طياتها ذكرى هزيمة الصرب أمام القوات العثمانية ، إلا أن الصرب يحتفلون اليوم لأنهم استطاعوا البقاء على قيد الحياة رغم قرون متعاقبة من السيطرة التركية!"ومعروف أن الصرب لم يكونوا يحتفلون بهذه المناسبة من قبل ولكنها نكاية بمسلمي كوسوفو ، وتأكيداً لسيادتهم على المقاطعة.

الإسلاميون في المواجهة:

وليست هذه التصرفات بمستغربة من الصرب الذين أعماهم تعصبهم لقوميتهم واعتقادهم بتفوقهم العرقي على من حولهم من القوميات الأخرى ، وهم إضافة لهذا من المسيحيين الأرثوذكس الذين يتأجج في صدورهم حقد دفين على الإسلام يدفعهم للثأر التاريخي من المسلمين ، والسعي للسيطرة عليهم وإعادة مملكتهم التي قضى عليها المسلمون مع نهاية القرن الرابع عشر.

ولذلك فقد سارعت صحيفة بوربا (الكفاح) الرسمية في بلغراد بنشر كتاب الضِّلّيل رشدي "آيات شيطانية" في حلقات مسلسلة حال صدوره في بريطانيا ، ولقد سعى الاشتراكيون اليوغسلاف ولأكثر من أربعين سنة متتالية لطمس شخصية المسلمين واقتلاع عقيدتهم وبث الظلمة في آفاقها ،وسخروا لذلك كل ما يملكون من وسائل مادية ومعنوية ، وكان لهذه المحاولات - ويا لَلأسف!- أثر بالغ في إفشاء الجهل بالإسلام وحرمان أهله من إقامة شعائره التعبدية ، ولقد تضاعفت مثلاً عضوية الحزب الشيوعي في كوسوفر من المسلمين - ما بين عامي 1972م ، و1982م (3). كما أن قيادة الحزب كانت دائماً بأيدي المسلمين.

وبرغم هذا كله فإن أحداث العامين الماضيين في كوسوفو وفي جمهورية بوسنيا وأحداث الأشهر الماضية تؤكد أن الإسلام هناك لم يُمت وأن الوعي

الإسلامي له أثره ، وكان ليوغسلافيا نصيب فيه رغم طول الوأد وطول الليل المضروبين على المسلمين فيها.
لقد شهدت السنوات الأخيرة في يوغسلافيا بناء العشرات من المساجد وبعض مدارس القرآن ، مع عودة كثير من المسلمين الذين عاشوا خارج البلاد ورجعوا وفي نفوسهم تصميم وعزم على تغيير أحوالهم والعمل من أجل المسلمين هناك.
وفي سراجيفو تصدر اليوم صحيفة بريبورو (التجديد) الإسلامية التي يزداد توزيعها يوماً بعد آخر ، وهي وإن كانت لا تؤدي الدور المؤمل لها كاملاً في الظروف الحالية إلا أنها قامت بدور فعال وكبير في بعث الإسلام ، وربط المسلمين ببعضهم وتبني مجموعة من قضاياهم المهمة ، وها هي تعلن على صفحاتها - بعد الأحداث الأخيرة - أن (500) من أئمة المساجد في بوسنيا وجهوا إليها رسالة يطالبونها فيها بالدفاع عن المسلمين في كوسوفو ، وبأن يكون بُعدها أكثر ريادة من قبل. كما قام هؤلاء الأئمة - وعلى رأسهم الدكتور صالح كولا كفتش من مسجد الموستار في بوسنيا والشيخ سعيد سمابيك مفتي الهرسك - بنقد كثير من أساليب الحكومة وسياستها في التعامل مع المسلمين.
والأهم من هذا هو مفاصلتهم للعلماء ، والأئمة المعينين من قبل السلطة ، حيث تمكنوا من إسقاط فرحات سينا من رئاسة المجلس الاستشاري الأعلى لبوسنيا وكرواتيا وسلوفينيا كما أنهم لا يزالون يطالبون باستقالة رئيس العلماء في يوغسلافيا حسين موبيك.
وهذه أول مرة يتحرك المسلمون فيها مجتمعين تحت قيادة واحدة معلنة ، ولا يزال الطريق أمامهم.
وكلمة أخيرة لابد لنا منها حيث الأحداث الدامية الأخيرة بدأت منذ شهور ولم تنتهِ ، فالأحكام العرفية في كوسوفو لا تزال قائمة والاعتقالات مستمرة ضد المسلمين فيها ومع ذلك فلم تحرك الدول الإسلامية والعربية ساكناً ، ولم يجرؤ أحد على المساس بعلاقاته مع أحد أركان عدم الانحياز.
إن العلاقات تتوتر وتقطع من أجل قضايا أقل أهمية من هذه الأحداث ولنا في علاقة الدول العربية مع بعضها البعض على هذا خير شاهد.
إن الإعلام العربي الذي عوَّدنا على الاهتمام بأخبار وأحوال كل مناضلي العالم الثالث ، بل ويحرص على ترجمة ونقل أدبياته كلها مع الإشادة بها لم نعرف منه حيال مثل قضايا المسلمين هذه إلا الصمت... ولا يزال!

الهوامش:

1- تمكن الصرب خلال تاريخهم الطويل من إقامة دولة لهم خلال القرن الثاني عشر ، كانت كوسوفو عاصمة لها ، غير أن ذلك لم يكن ليستمر طويلاً ؛ إذ تمكن الأتراك العثمانيون من قهرهم والقضاء على مملكتهم عام 1389م بعد

معركة كوسوفو الشهيرة ، لتبقى كذلك خمسه قرون آتية ، وانسحب الأتراك منها عام 1912م بعد خسارتهم في معارك البلقان.

2 - حصل هذا الاحتفال فعلاً في عرض من التحدي والتهجم والتعاون بين الكنيسة الأرثوذكسية والشيوعيين الصرب القوميين المتعصبين ، تحت سمع العالم وبصره.

BURG,Steren.,(New Data on the League of Communist of -3 Yogoslavia),SLAVIC AEVIEW,Fall/winter,1987,P. 563-577

السودان ودوامة التغيير

هل كُتب على السودان وأمـثـالـه مـن دول العالـم الإسلامي أن يعيش أبداً في حالة ترقب وتغيير فلا يهدأ له بال ولا يستقر على حال، مـتــى تنـتـهـي هــذه الــدورة بين المدنيين والعسكريين ، فلا العسكريون - بتكوينهم و عقليتهم التي تربوا عليها - استطاعوا تأمين الاستقرار والعيش الكريم ، ولا المدنيون - بضعفهم و هشاشة ديمقراطيتهم التي يزاولونها - استطاعوا عمل شيء كبير أو الوقوف في وجه المؤامرات التي يتعرض لها بلد ذو أغلبية إسلامية عربية ، وله عمق في داخل إفريقية.

إن ممارسة هؤلاء السياسيين أقرب إلى البهلوانية السياسية (بوليتيكا) من ممارسة السياسة بمعناها الحقيقي ، إنهم يدَّعون الديمقراطية ولكنهم يمارسون الدكتاتوريـة بشـكـل مقنَّع ، فالحــزب الكبير يريد ابتلاع الأحزاب الأخرى ، وبين هؤلاء المتلاعبين (الفاشلين) وبـيـن العسكريين يستشري الفساد وتذهب الطاقات ، وتتمزق الأوطان ، هذا إذا فرضنا في الطرفين الإخلاص الوطني على الأقل، فكيف والأهواء،ومطامع الدول الأخرى هي التي تتحكم؟.

أين دور العلماء والدعاة في تربية الشعب والاتصال به ، وتكتيل الجماهير المسلمة على ألا تخضع لهذه المؤامرات ولا تركن إلى هذا الضعف وهذا التمزيق.

إن تجمع الدعاة والعلماء وأصحاب التوجه الإسلامي أَوْلى من تجمع بعضهم مع الأحزاب العلمانية التي تمارس اللعب على الحبال وتظهر لنفسها في كل مرة وجهاً جديداً.

ليس هناك أمل لهذه الأمة إذا كان علماؤها ومفكروها لا يستطيعون قيادتها ، ويجب أن لا يترك السودان ذو الوجه الإسلامي العربي يتحكم به أمثال قرنق ومن وراءه ،و المسلمون هم المسؤولون.

منبر الشباب

الثقة بالنفس

عبد الله حماد الجهني

إن من أهم ما نفتقده في مجتمعاتنا اليوم الثقة بالنفس ، ذلك الإحساس الذي متى ما تلبّس به الإنسان أحس أنه قادر على أي عـمـل يـمـكـن عـمـلـه بإتقان. تلك الشعلة التي تضيء لحاملها الطريق لكي يتقدم على بصيرة ، ولا أقصد فيه ذلك الإحساس الذي يرتفع حتى يلامس الغرور ، ولا الذي ينخفض حتى يلاصق الخمول.

والناظر في مجتمعاتنا اليوم لا يكاد يرى تلك الشعلة ، سـواء عـلـى مـسـتـوى الأفــراد أو الـجـمـاعـات ، ولقد حاول اعداء المسلمين وأذنابهم في القديم والحديث زعزعة ونزع هـذه الثقة بـتـتـالـي الضربات والنكبات ، فلقد هزمنا كثيراً حتى فقدنا الثقة بالنصر وأصبحت الهزيمة شيئاً عادياً.

فإذا كانت الثقة بالنفس هي المفتاح للنجاح والنصر ، فكيف ننجح وننتصر إذ لم تكن هذه الثقة موجودة؟!

الأسباب المؤدية للثقة بالنفس:

وتزرع الـثـقـة أول ما تزرع في الصغر ولا يمنع أن يكتسبها الإنسان في الكبر وذلك بالرياضة النفسية. وأهــم محـرك للثقة بالنفس هو التشجيع ، ويتضح هذا من خلال عرض قصتين وقعتا في غزوة خيبر في آخر حصن من حصونها المسمى (الوطيح):

أما الأولى فمع الزبير بن العوام حين قال ياسر اليهودي - أخو مرحب وكان رجلاً قوياً - مَن يبارز؟ ؛ فقال الزبير بن العوام: أنا لك ؛ فقالت أمه صفية: يا رسول الله! ، يقتل ابني!

فقال لها - عليه السلام -: بل ابنك يقتله إن شاء الله. فالتقيا فما هي إلا لحظة حتى سقط رأس اليهودي.

فانظر إلى الكلمات المشجعة من النبي - صلى الله عليه وسلم - ماذا عملت. لقد عملت الكلمات في نفس الزبير أقوى مما عمله السيف بجسم اليهودي.

أما الموقف الثاني: فمع علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فبعد تلك المبارزة اقتتل الناس ، وكانت الراية عند أبي بكر - رضي الله عنه - وشعارهم يومئذ: يا منصور أمت أمت ، فقاتل قتالا شديداً ثم وجع فأخذها عمر - رضي الله عنه - فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من الأول ثم وجع ، فقال - صلى الله عليه وسلم - أَمَا والله لأعطينها غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فدعا علياً - رضي الله عنه - وهو أرمد فتفل في عينيه ثم أعطاه الراية.

فخرج علي يهرول حتى ركز الراية تحت الحصن ، وبعد قتال شديد - هو أشد من الأول -تمكن علي من فتح ذلك الحصن بإذن الله.

وكيف لا يفعل على هذا وقد أخبره الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما يصبو إليه من حب الله ورسوله وفوق هذا كله حب الله وحب رسوله له. إنها كلمات تبعث في النفس الحماس والثقة ، فما أحوجنا اليوم أن نطلق مثل هذه الكلمات المشجعة التي تنطلق من أفواهنا لتلامس قلوب ونفوس الآخرين.

أسباب عدم الثقة بالنفس:

وأهم ما يفقد الثقة بالنفس وخصوصاً عند الأطفال: الإسراف في نقد الأخطاء. والنقد الجيد كالدواء القوي يصلح الأجسام القوية ، ويهلك الأجسام الضعيفة ، فالنقد يزيد الشخص الواثق من نفسه فهماً وإدراكاً ، وأما الآخر فيهلكه وليس معنى ذلك أننا لا ننتقد أحداً ، بل هناك تفصيل:

أولاً: مَن ننتقدهم مواجهة وهم الراسخون الذين لا ينقصهم النقد بل يزيدهم.

ثانياً: مَن ينتقد ولكن بطريقة غير مباشرة وهم من عرَّض نفسه للنقد.

ثالثاً: مَن لا ينتقد بل يوجه ويشجع.

وقد اتضح من بحث دقيق أن الأطفال المنبسطين يضاعفون جهدهم عقب النقد ، في حين أن المنطوين يضطرب إنتاجهم عقب النقد واللوم. كما ظهر أيضاً أن بطيء التعلم يحفزه الثناء أكثر من النقد ، في حين أن النقد واللوم أجدى للموهوبين.

وأيضاً من الأشياء التي تعوق الثقة بالنفس: السخرية مما يبديه الشخص من آراء وكبحه حين يختلف رأيه عن آرائنا ، فسرعان ما يتعلم أن أفكاره تسبب له المتاعب ويرى من الخير أن ينقاد ويسكت ، والتناسب طردي بين الثقة بالنفس والنتيجة.

هذا على مستوى الجماعات ، أما على مستوى الأفراد ، فعدم الثقة بالنفس نتج عنه الخوف من الخطأ ، والتردد وهذا بطبعه أدى إلى الجمود وإلى التقليد ، لأنه يرى أن التقليد أسهل عليه ، التقليد في الأفكار والتقليد في السلوك والتقليد في الشخصية ، فتراه يلغي عقله ويمشي وراء من يقلده مغمض العينين مقلداً لهم في الخطأ والصواب ، في الأقوال والأفعال ، لا يخالفهم لأنه يعتقد أنه دائم على الخطأ وهم على الصواب ، بينما نجد أن كبار المفكرين والمجددين كانوا يتميزون عن غيرهم بالثقة بالنفس.

فما أحوجنا اليوم إلى مثل هذه الثقة مثل ثقة سماك بن خرشة "أبو دجانة" حين قال المصطفى -صلى الله عليه وسلم-: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقال أبو دجانة: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني. فقال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه إياه فلو لم تكن عند أبي دجانة الثقة بنفسه لما أخذه.

الحلم الذي تحقق

كم كنت أحدث نفسي وإخواني فـي الله عـن الحـاجـة الـملحة إلى منبر إعلامي ينبثق من الأصالة المتمثلة في رؤية سلف هذه الأمة لجوانب الحياة ، ومـن ربطـه بواقع الأمة ، ومن التجديد الذي تعني به رسم الصورة الصحيحة الواضحة في أذهان الناس عن الدين بعد أن طمست ولم تعد ناصعة كما كانت في عهد سلفنا الصالح (رضوان الله عليهم).

كـم كـنت أحلم بمنبر يشع منه الفكر الإسلامي الأصيل الذي يربط الـمـاضـي بـالحـاضـر، ويـكـون مـواكـبـاً لـهـــذه الصورة المباركة حتى تؤتي أكلها بإذن ربها بعيداً عن الأغراض الدنيوية ... والتكتلات الحزبية ... لا تولّي وجهها شطر جهة من الجهات... ولا تخضع لسياسة غير سياسة يريدها الله فهو وحده الذي تنتظر منه العون والمساعدة...

أيها الإخوة القائمون على مجـلـتـنـا الحـبيبة: بارك الله في جهودكم وسدد خطاكم ، ولا تنسوا أنكم على ثغر عظيم مرابطون، فلا يُؤتَى الإسلام من قبلكم،ولا أخفي عليكم إعجابي (بكلمة في المنهج) فلتكن نصب أعينكم دائماً ، ولا تظنوا الطريق مفروشاً أمامكم بالزبرجد والياقـوت ... وحــذارِ حـــذارِ من سياسة (المقال يعبر عن رأي كاتبه، ولا يعبر عن رأي المجلة) فما يضر الشاة سلخها بعد ذبحها.

وأهيب بالإخوة في مجلتنا الغراء أن يسيروا قدماً في طريق الدعوة إلى الله عبر هذه الوسيلة، وأن يتحملوا مسئولية وعبء هذه الصحوة المباركة في بلاد المسلمين ،و أن يبطلوا مفعول تلك الألغام التي زرعها الحاقدون والأعداء في طريقها.

وتحياتي العطرة لكل القائمين على هذه المجلة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم: أبو معاذ محمود المختار

نشكر الأخ أبا معاذ على عواطفه الصادقة وعلى تشجيعه للبيان وللقائمين عليها ، ونرجو أن نكون عند حسن الظن بنا.

مكتبة البيان

إعداد: محمد الحسيني

* د.عابد السفياني: المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة وشمولها ، دراسة وتطبيقاً. نشر مكتبة المنارة مكة المكرمة1408. هـ ،150 صفحة.

لخص المؤلف في خاتمة الكتاب أهم ما ورد فيه،ومن ذلك: أن من أهداف الاستشراق إبعاد الدين وسلطانه عن النفوس، وأنهم ينظرون إلى الإسلام كنظرتهم إلى المسيحية ، وأيضاً فهم معادون للدعوات الإصلاحية السلفية،

ويروجون للدعوات العقلانية والمنحرفة، وقد ناقش المؤلف بعض المصطلحات والكتب والاتجاهات التي تأثرت بالمستشرقين.

***

* د.محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة. دار القلم دمشق وبيروت 1409 هـ، 456 صفحة.

الدكتور محمد حرب عبد الحميد من عشاق التاريخ العثماني، ومن أكثر الكُـتـاب الـعرب معرفة به وحباً له، قضى زمناً في تركيا، درس اللغة والتاريخ الـعـثـمـانـيـيـن، ويأتي هـذا الكتاب للدفاع وللإشادة بأمجاد الدولة العثمانية وتبرئة ساحتها ، وما كُتب عنها من نقد. والمؤلف يبادرك منذ أول الكتاب بقوله: "ودولة العثمانيين أطول دولة في التاريخ ولا يطول عمر الدول إلا بحضارة وعدل ، وحضارة العثمانيين هي ذروة تطور الحضارة الإسلامية" (ص 7).

والكتاب يقدم للقارئ العربي ما لم يكن يعرفه من جوانب هذا التاريخ ، وقـد أثـنــى وزاد عما كتب السابقون في هذا المجال - مجال الدفاع - كعبد العزيز الشناوي، وعلى حسون، وزلّوم ، ومازلنا نرقب النظرة الوسطى بين الطرفين.

* د.زغلول راغب النجار: قضية التخلف العلمي والتقـني في العالم الإسلامي الـمـعـاصر، كتاب الأمة ، قطر 1409هـ ، 146 صفحة من القطع الصغير.

هذا الكتاب يحمل الرقم العشرين من سلسلة كتاب الأمة الذي تصدره محاكم قطر ، وقد خـرج فـي هـذه السلسلة بعض الكتب الجيدة في قضايا متنوعة ، ومؤلف كتاب قـضـيــة التخلف أستاذ جيولوجيا وذو عاطفة إسلامية ، والكتاب على صغره مليء بالقضايا التي تستحق الاهتمام والفهم.

اعتمد المؤلف في كثير مما ساق على الإحصائيات الثابتة في مجال هجرة المال والعقول إلى الغرب، ونسبة الأمية، وظاهرة المجاعات في العالم الإسلامي ، كما عرض القضايا التقنية - وجوداً وتطوراً ونقلاً - إلى عالمنا، وفـي نهـايــة الكـتـاب قدم المؤلف وصفة علاج لتلك المشكلات في جانبيها المادي والمعنوي ، ثم قال: "وهي وسـائـل إن سـهـل تسـطـيـرها على الورق فإن إخراجها إلى حيز الوجود يحتاج إلى جهود وجهود".

نرجو أن يكون للجامعات ومراكز البحوث في العالم الإسلامي دور في الإصلاح وقد تجاوز عددها 224 جامعة ، وأكثر من تسعمائة مركز للبحوث التقنية ، فهل يستمر دورها في إعداد الخبراء للتصدير؟ ، وقد كان الجانب الاجتماعي والسياسي في هذا الكتاب بحاجة إلى مزيد عناية وتفصيل من المؤلف حبذا لو قام به.

الصفحة الأخيرة

المشاريع السياحية

عبد القادر حامد

هناك هبة مشهودة في تشجيع الـمشاريع السياحية والترفيهية في العالم العربي ، حتى إن المرء ليظن أن كل شئ أصبح للسياحة والترفيه، قرى سياحية، فنادق سياحية، استراحات سياحية ، مسارح ، ملاهٍ ، مراقص ، منتجعات... حمى السياحة تغمر الناس، والمشاريع الاقتصادية عقمت إلا من هذا المصدر السخي!

أين المشاريع الصناعية والتعدينية، أيـن الخـطـط الطـمـوحـة الـتي تسخر الموارد الطبيعية بمساعدة التربية العلمية الحديثة التي أعددنا بها الأجيال منذ زمـن لـيـس بالقصير ، أين الإمكانات والمواهب ، أين التكنولوجيا التي نباهي بمعاهدها وجامعاتها وخريجيها؟.

أيـن الـزراعــة الحـديـثـة التي يسد إنتاجها أفواهنا المفتوحة لإنتاج غيرنا، ومـاذا حـدث لأرضنا الصالحة المشهورة بخيرها ، والتي سال لعاب الأغراب من أجلها يوماً ومازال؟ لقد تفرق أهلها عنها، وزهدوا فيها، وهي ليست خليقة بزهد،وهرعوا إلى زوايا البطالة المقنعة، خـلـف الـمـكـاتـب الـتـي قتلت الحيوية في النفوس، وزرعت فيها (التنبلة) بدل الطموح، والتطلع إلى الإيقاع بالآخرين بدل أن يحرص كلٌّ على ما ينفعه ، ويستعين بالله ولا يعجِز.

ولعل الذين ساقوهم إلى هـذا الـمـصـيـر يشعرون أن هذه الجموع المتبطلة لابد لها من ترفيه ينسيها الويل الذي صارت إليه.

إن الشعوب الأوربية التي نقلدها بتـشـجـيـع الـسـيـاحة مكفية من الضروريات متخمة من الكماليات ، وعندها المال الكافي الذي تستثمره في مثل هذه المشاريع ، وبمعنى آخر عندها طبقة وسطى هي الأغلبية ، أما نحن فإما قلة قليلة متخـمـة لا تـعـرف أين تنفق مالها ولا كيف تنفقه ، وإما كثرة مسحوقة تعيش على الكفاف أو أقل ، وليس من طبقة وسطى لها قيمة.

وعلى هذا فإن هذا الاتجاه الخطير إلى السياحة ، وهذا الإنـفـاق عـليها سيكون من نتائجه تعميق الهوة بين هاتين الطبقتين ؛ بحيث لا يبقى بينهما شيء مـشـتـرك إلا الفـساد الذي يـهـوون إلـيـه بـاسـم الفـن والترفيه. هذا فضلاً

عن الأزمات الاجتماعية التي تترتب علـى تحويل بلادنا إلى أماكن لهـو وعـبـث وانحـلال لـطـالبي اللهـو والعبث والانحلال من أهل الغرب وأهل الشرق.

تمت بعون الله والحمد لله